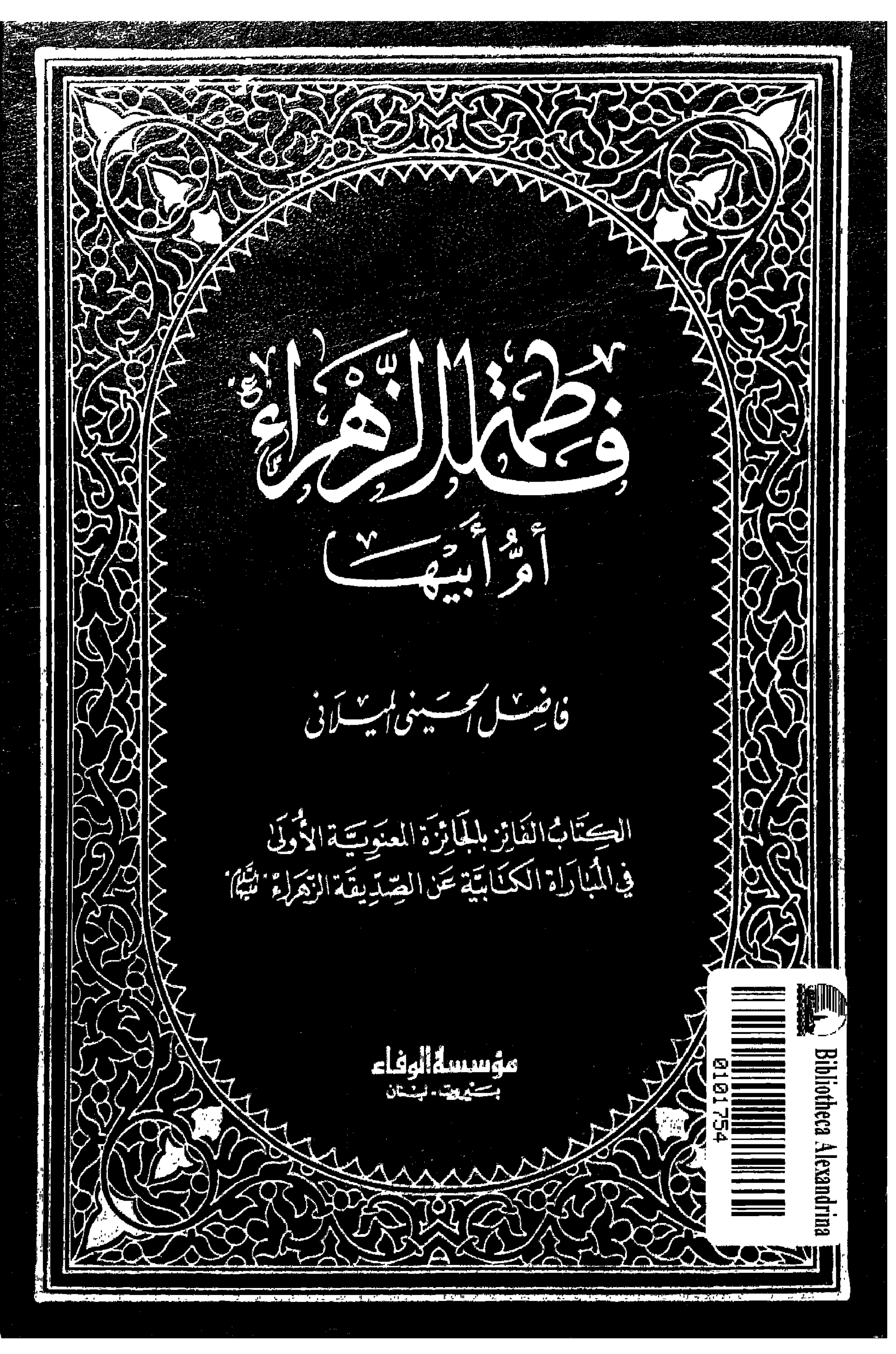

فاطمة الزهراء
أم أبيها
فاضل الحسيني الميلاني
الكتاب الفائز بالجائزة المعنوية الأولى
في المباراة الكتابية عن الصديقة الزهراء عليها السلام
مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0101754








فاطمة الزهراء
أم أبيها

بسم الله الرحمن الرحيم



الكتاب الفائز بالجائزة المعنوية الأولى
في المباراة الكتابية عن الصديقة الزهراء «عليها السلام»

فاضل الحسيني الميلاني

مؤسسة الوفاء
بيروت - لبنان

الطبعة السادسة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان - ص.ب ١٤٥٧ - هاتف ٢٨٦٨٦٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

"أُمُّ أَبِيهَا"

قلادة قلّدَ بها رسولُ اللهِ (ص)

جيدَ بضعتِهِ المفضّلة !! "١"

---

(١) راجع في ذلك
١ ـ أسد الغابة لابن الأثير ج٥/ ٥٢٠.
٢ ـ الاستيعاب لابن عبد البر ج٢/ ٧٥٢.
٣ ـ المنتخب من كتاب الذيل المذيّل للطبري ص٦.

الإهداء

إلى كُلِّ أنثى تنشدُ قُدوةً تقتدي بها في حياتها ،
إلى كُلِّ مرأة تبحثُ عن الطريقِ الأمثلِ في الحياة ،
إلى كُلِّ من يُريدُ معرفةَ المرأةِ المثلى في تاريخ البشريّة ،
أُهدي هذا الكتاب !

فاضل الحسيني الميلاني

بطاقة ولاء

عزيزي القارىء :

هذه الأوراق (بطاقة ولاء) بين يدي سيّدة النساء ، تكشف عن حب عميق لأهل البيت . بنيت عليه من ضلوعي كوخاً متواضعاً يقوى على تحدّي الرياح من أن تعصف به .

وكلّي أمل في أن تقبل الزهراء عليها السلام هذا الجهد المتواضع من أحد أحفادها .



على العتبة

إنحناءة إجلال بين يديك سيّدتي ، يا بضعة النبي!!
وطأطأة للرأس تجاه مقامك الشامخ ، يا أم الحسنين!!
أي قلم يرقى إليك ليكتب عنك ؟!
وأي ريشة تدقّ وتلطف حتى تستطيع أن تصوّرك كما أنت؟!
قالوا عنك : أنك وترٌ في غمد .
وقالوا : أنك نداء الملايين .
وقالوا : أنّك شهاب النبوة الثاقب .
وكنت أنا ممن قال : أنّك أنثى في القمة[1]
لكن ذلك كله لا يتعدى أن يكون مرآة تعكس جزءاً ضئيلاً مما أنت عليه ، أفلست أنت بنت النبوة البكر؟!
أم ألست ربيبة الوحي؟!
أجل!

أنحني مرة أخرى ثم ألتمس على لسان والدك العظيم سمة منحها إياك ، وقلادة قلّدك بها فأراه ـ روحي فداه وفداك ـ يناديك بـ « أم أبيها » إذن ، فأنت أمّ أبيك . . .

(١) هذه الأسماء هي بعض عناوين الكتب التي دخلت مضمار المسابقة .

وطبيعي أن تكوني أمّاً له في رسالته ، لا في ولادته !!

ولكن هل يقف القلم عند هذا الحدّ ؟! انه يحاول أن يضيف على هذه الصورة بعض الرتوش ، ونعم ما يفعل عندما يفعل ذلك .

وإزاء هذا الموقف يوجد موقف آخر يولي الرتوش وحدها اهتماماً بالغاً، إنه يعطي النصيب الأكبر للإطار دون الصورة ، والشكل دون المضمون ، ولكني سوف لا أكون ممن يحبّذ هذا الموقف . فله رجاله وله أنصاره ، ولست منهم .

ولئن كانت سوق (الرتوش) رائجة في عصرنا هذا ، فليس من المنطقي أن يسعى الإنسان وراء كل ما هو جارٍ ورائجٌ في العصر من دون تمييز بين صحيحه وسقيمه ، وغثه وسمينه .

* * *

إذن لأكن ممن يحاولون التعبير عن مشاعرهم الصادقة تجاه الصدّيقة الزهراء عليها السلام دون التعميق في الرتوش . . .

وهكذا عشت التجربة في فترة لا تتجاوز الأسابيع الثلاثة ، خرجت في نهايتها بهذه الأوراق التي أقل ما فيها أنها (بطاقة ولاء) .

في الليلة الأخيرة من أمد المباراة قدّمت هذا الكتاب إلى لجنة التحكيم ولم يدم الانتظار طويلاً حتى أعلنت النتائج .

* * *

وذات ليلة خاطبني سيّدي الوالد دام ظلّه الوارف بلهجة فيها الكثير من اللوعة والولاء :

هيه يا بنيّ ، ألا تنوي نشر ما كتبته عن الصدّيقة الزهراء (ع)؟!

قلت : بلى !

قال : عليك بذلك .

ومرّت لحظات فهمت من لغة الصمت خلالها مدى عزم سيّدي الوالد على هذا الأمر ، فامتثلت أمره ، وأخذت للأمر أهبته ، وها أنا أقدم الكتاب إلى قارئي الكريم[1].

---

(١) مع إجراء اللمسات الأخيرة علىٰ هذه الأوراق لتقديمها للطبع حمل الناعي إلينا ونحن في مشهد الإمام الرضا عليه آلاف التّحيّة والثّناء ، نبأ وفاة السّيّد الوالد في النّجف الأشرف علىٰ أثر الذبحة الصدريّة الّتي أصابته قبل سنة فرقد بجوار الإمام امير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه ، وفاز بالأمنية الّتي كان يتمنّاها طيلة عمره .

وفاءً منّي تجاه تلك الرّوح الّتي عُجنت بحبّ الزّهراء وأبيها وبعلها وبَنيها ، أهدي هذه الطّبعة إليه .

أسكنه الله تعالىٰ فسيح جنته ، وحشره مع جدّته الصّديقة الطّاهرة سلام الله عليها .



أهدابُ النُّورْ

١- مَوْلدُ النُّور
٢- الكَوْثَرْ
٣- لُغَةُ المُعجزة



مَوْلِد النُّور

﴿الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنّها كوكب دريّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم﴾[1] .

مفهوم النور من أبسط المفاهيم وأوضحها على الإطلاق ، فلا تكاد تجد أحداً يجهل معناه . . . ومع ذلك فان البحث عن حقيقته في غاية التعقيد !

إنه قوام المعاني الجمالية كلها ، فمتى ما ذكر النور اقترن معه ذكر الخير والجمال والحق والهداية والصلاح . وعلى عكس ذلك فان الظلام قوام المعاني الشريرة والفكر الهدامة والمتاهات والمفاسد .

وبقدر ما تكون عليه حصة الموجودات من النور الشامل تكون مرتبتها ومنزلتها بين باقي الموجودات ، وهكذا تتدرج من عالمها المادي الى عالم المجردات حيث النور أكمل . . . كل هذه الموجودات تستمد كيانها

---

(١) سورة المؤمنون / ٣٥.

ووجودها ونورها من النور المطلق ، مصدر الأنوار ، وموجد المخلوقات ونور السماوات والأرض . . . الله جلّ جلاله .

* * *

أما في الأرض فيتمثل النور الإلهي في بضعة من الآدميين ، شاء لهم الله أن يمتازوا عن جميع الخلق بذلك ، فهم مشاعل الخير والهداية على مرّ القرون والأجيال ، وقادة الأمم نحو السعادة والصلاح . . اختارهم الله حفظةً لسره ، وخزنة لعلمه ، وتراجمة لوحيه ، وأدلّاء على صراطه فعصمهم من الزلل وآمنهم من الزيغ والضلال . . . فكانوا نور الله في الأرض !

لقد ورد في الزيارة الجامعة : « خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين » وورد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام : « أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة ، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها » وفي زيارة الامام موسى بن جعفر (ع) « السلام عليك يا نور الله في ظلمات الأرض » .

وقال الشاعر :

هم النور نور الله جل جلاله   هم التين والزيتون والشفع والوتر

وتمثل نور الله أول ما تمثل في خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ص) وعليّ بن أبي طالب سيّد الوصيين (ع) . . . وانحدر النور بعد ذلك من صلب النبي صلّى الله عليه وآله . . . فكانت فاطمة عليها السلام .

ولعلّ قارئي الكريم يذهب به الوهم بعيداً فيراني أسبح في بحر الخيال وأنسج من ذلك على هذا النول ، لكنه الحق الذي نطق به الرسول الأعظم نفسه حيث قال :

« لمّا عُرج بي إلى السماء ، أخذ بيدي جبرائيل ، فأدخلني الجنة ، فناولني من رطبها فأكلته ، فتحول ذلك نطفة في صلبي ، فلما هبطت إلى

الأرض واقعت خديجة وحملت بفاطمة ، ففاطمة حوراء إنسية ، فكلما اشتقت إلى رائحة الجنّة شممت رائحة ابنتي فاطمة »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يكثر القُبل لفاطمة ، فقالت له عائشة : إنك تكثر تقبيل فاطمة ! فقال صلّى الله عليه وسلّم : إن جبرئيل ليلة أسري بي أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها فصار ماءاً في صلبي فحملت خديجة بفاطمة . فإذا اشتقت لتلك الثمار قبّلت فاطمة فأصبت من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها »[2] .

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « نعم يا عائشة إني لما أسري بي إلى السماء أدخلني جبرئيل الجنّة فناولني منها تفاحة فأكلتها فصارت نطفة في صلبي ، فلما نزلت واقعت خديجة ، ففاطمة من تلك النطفة ، وهي حوراء إنسيّة ، كلما اشتقت إلى الجنة قبلتها »[3] .

---

(١) أمالي الصدوق ، نقلاً عن السيد حسن الشيرازي : كلمة الرسول الأعظم ص٨١ .

(٢) أخرجه كلّ من :-
- محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٣٦ طبعة مكتبة القدس بمصر .
- أحمد بن يوسف الدمشقي في (أخبار الدول) ص٨٧ طبعة بغداد .
- الذهبي في (ميزان الاعتدال) ج١/٢٥٣ طبعة مصر .
- ابن حجر العسقلاني في (لسان الميزان) ج٢/ ٢٩٧ طبعة حيدرآباد ، الدكن .
- القندوزي في (ينابيع المودة) ص١٩٧ طبعة اسلامبول .
- الحاكم النيسابوري في (المستدرك) ج٣/١٥٦ طبعة حيدرآباد ، الدكن .

(٣) أخرجه كلّ من :-
- الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) ج٥/٨٧ مطبعة السعادة بمصر .
- أخطب خوارزم في (مقتل الحسين) ص٦٣ مطبعة الغري .
- الذهبي في (ميزان الاعتدال) ج١/٣٨ طبع القاهرة .
- الهيثمي في (مجمع الزوائد) ج٦/٢٠٢ طبعة مكتبة القدس بمصر .
- ابن حجر العسقلاني في (لسان الميزان) ج٥/١٦٠ طبعة حيدر آباد ، الدكن .

أجل ! تفجر هذا النور المشرق في بيت محمد صلّى الله عليه وآله صبيحة العشرين من شهر جمادى الثانية في السنة الخامسة من البعثة ، فملأ قلب الرسول الأعظم بهجة وسروراً . وقد آثر الله الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث من قبل : (زينب ، ورقية ، وأم كلثوم) فكتب لها أن تكون ـ وحدها ـ الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الشرف من آل البيت .

ولأمر قد قُدّر ، كان النبي صلّى الله عليه وآله على علمٍ من أنه سوف لن يعقب إلا من فاطمة ، فستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر أسلاك الزمن ، ولتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض . . . ولذلك فقد كان يحبها حباً جماً ، حتى انه كان يناديها أحياناً ـ بـ(أمّ أبيها)

وكان الأمر كما قدّر ، فقد توفيت كبرى بنات النبي (زينب) متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من (مكة) إلى (المدينة) بعد غزوة بدر ، وذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق إلى دار الهجرة ـ بعد أن فرّق الإسلام بينها وبين زوجها وابن خالتها أبي العاص بن الربيع ـ فنخسها في بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها .

أما (رقية) و(أم كلثوم) فقد ماتتا بعد أن تزوجها (عثمان ابن عفان) على التتالي ، وكانت وفاة رقية نتيجة قضية تاريخية يطول شرحها .

وهكذا كان مولد هذا النور مبعث خير وسكينة في قلب النبي صلّى الله عليه وآله ، وهذا ما دعاه إلى الاهتمام بشأنها أيما اهتمام . فهو القائل في حقها : « فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ، ويؤذيني ما آذاها »[1] وهو الذي كان يمرّ على بيتها صباح كل يوم عند خروجه إلى المسجد للصلاة ، ويأخذ بعضادة الباب قائلاً : « السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة ، إنما

---

(١) علي بن عبد الله السمهودي : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ج١ / ٣٣١.

يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً »[2] .

... إلى غير ذلك من فضائلها ومكانتها في نفس النبي صلّى الله عليه وآله ، ذلك ما سنعرفه في الفصول القادمة .

---

(٢) بهذا اللفظ وألفاظ مشابهة ، راجع :
- صحيح البخاري: ٥/٢٧٤.
- صحيح مسلم: ٤/٢٦١.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم : ٤/١٥٤.
- ذخائر العقبى: ٢٩.
- الصواعق المحرقة لابن حجر : ١٠٥.
- مسند أحمد بن حنبل : ٤/٣٢٨ .
- الصحيح الجامع للترمذي : ٢/٢١٩.
- مسند ابن ماجة : ١/٢١٦.

الكَوْثَر

﴿إنّا أعطيناك الكوثر ، فصلّ لربّك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر﴾[1] .

لك الله يا محمد !!

المجتمع الذي تعيش فيه ، والذي أتيت لتقوض دعائم الجهل والفقر والفساد منه وتبني على أثر ذلك كياناً إنسانياً كاملاً . . . لا يزال يحمل في طياته رواسب الجاهلية المتمثلة في احتقار الانثى واعتبارها مدعاة للذل والهوان حيث قال فيهم الله تعالى :

﴿وإذا بُشّر أحدهم بالانثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾[2] .

المجتمع الذي جئت لتنقذه من غمرات الضلالة ، وتأخذ بيده إلى شاطىء السعادة والأمن والرفاه لا يزال يعتبر الرجل الذي لم يعقب ذكراً أبتر ، ويعيّره على ذلك . . .

---

(١) سورة الكوثر : ١ ـ ٣.

(٢) سورة النحل : ٥٩.

لك الله يا رسول الإنسانية ! حين يراك العاص بن وائل خارجا من المسجد ، فتلتقيان عند باب بني سهم وتتحدثان .. وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، وتنصرف لبعض شأنك ، فيدخل العاص ويسألونه : من الذي كنت تتحدث معه ؟ فيقول : ذلك الأبتر!![3] .

أهكذا يجازى النبي على جهوده التي بذلها ليل نهار لهداية أولئك الغلاظ الشداد؟

أليس الأجدر بهم أن يعزوه بوفاة ولده عبد الله ...

أهكذا تكون النكاية ؟!

ولكن الله تعالى جلّ عن أن يترك النبي لوحده يتجرّع الغصص والآلام فها هو الأمين جبرئيل ينزل عليه بالوحي المبين ، مفرحاً قلبه، مؤنساً وحشته ...

﴿إنّا أعطيناك الكوثر ، فصلّ لربّك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر﴾ ، .

وصدقِ الله العلي ...

فقد أعطى رسوله الكوثر ، والكوثر على وزن (فَوْعَل) من الكثير يستعمل للمبالغة . أجل فقد أعطى الله رسوله صلّى الله عليه وآله الكثير الكثير :

الكثير الكثير من العلم .
الكثير الكثير من الجاه والمنزلة .
الكثير الكثير من الأتباع .

الكثير الكثير من الذرية .. إنهم ذريته التي ستزدهر وتنبع من معين

---

(٣) الفضل بن الحسن الطبرسي : مجمع البيان ج١٠/ ٥٤٩ . شركة دار المعارف الإسلامية ، طهران ١٣٧٩ هـ.

فاطمة الزهراء ، وتفنّد وصف العاص ـ وأمثال العاص ـ إياه بالأبتر .

إنّهم وُلد فاطمة ، وإن شئت فقل : وُلد الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله .

وجاءت الآية الكريمة مفنّدة العموم في الدعوى التي كان يترنّم بها أبناء الجاهلية :

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

كلّا ، فالذرية من فاطمة، ذريّة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

وأصدق شاهد على ذلك تجده في سيرة النبي نفسه . فقد كان يبذل لأولاد فاطمة ، وللحسن والحسين عليهما السلام بالخصوص ما كان لا يقصر عمّا يبذله أي أب تجاه أولاده .

وفي المحاورة التالية ما يوضح لك كون الحسن والحسين أبناء رسول الله صلّى الله عليه وآله .

« عن أبي الجارود ، قال : قال لي أبو جعفر عليه السلام ـ يعني الإمام محمد الباقر ـ:

يا أبا الجارود ، ما يقولون في الحسن والحسين؟

قلت : ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله صلّى الله عليه وآله .

قال : فبأي شيء احتججتم عليهم ؟

قلت : بقول الله في عيسى بن مريم : ﴿ومن ذرّيته داود ـ الى قوله ـ وكلٌّ من الصالحين﴾[1] فجعل عيسى من ذرية إبراهيم . واحتججنا عليهم بقوله تعالى : ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾[2] .

قال : فأيّ شيء قالوا ؟

---

(١) سورة الأنعام/ ٨٤، ٨٥ (٢) سورة آل عمران /٦١.

قلت : قالوا : قد يكون ولد البنت من الولد ، ولا يكون من الصلب .

قال : فقال أبو جعفر عليه السلام : والله يا أبا الجارود لأعطينكها من كتاب الله آية تسمّى لصلب رسول الله صلّى الله عليه وآله لا يردّها إلا كافر .

قلت : جعلت فداك ، وأين ؟

قال : حيث قال الله : **﴿حرّمت عليكم امّهاتكم وبناتكم واخواتكم ـ الى قوله ـ وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم﴾**[1] فَسلْهم يا أبا الجارود هل يحلّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله نكاح حليلتهما . فان قالوا : نعم ، فكذبوا والله ، وإن قالوا : لا ، فهما والله ابنا رسول الله لصلبه ، وما حرّمت عليه إلا للصلب[2] .

* * *

ولابن أبي الحديد المعتزلي مناقشة جميلة بهذا المعنى .

قال في شرح قول أمير المؤمنين عليه السلام في بعض أيام صفين ، حين رأى ابنه الحسن عليه السلام يتسرع إلى الحرب : « املكوا عنّي هذا الغلام لا يهدّني ، فإني أنفس بهذين ـ يعني الحسن والحسين عليهما السلام ـ عن الموت ، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم » :ـ

« فان قلت : أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما أبناء رسول الله ، وولد رسول الله ، وذريّة رسول الله ، ونسل رسول الله صلّى الله عليه وآله ؟»

(١) سورة النساء/ ٢٢.

(٢) بحار الأنوار للعلاّمة المجلسي ـ الطبعة الحديثة ج٤٣/٢٣٢ نقلاً عن الاحتجاج . وتفسير علي بن إبراهيم .

قلت : نعم ، لأنّ الله سمّاهم أبناءه في قوله تعالى : ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ وإنما عنى الحسن والحسين . ولو أوصي لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات . وسمّى الله تعالى عيسى ذريّة إبراهيم في قوله : ﴿ومن ذرّيته داود وسليمان﴾ إلى ان قال : ﴿ويحيى وعيسى﴾ ولم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل[1] .

فان قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم﴾؟

قلت : أسألك عن أبوّته لابراهيم بن مارية ، فكلّ ما تجيب به عن ذلك فهو جوابي عن الحسن والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عنى زيد بن حارثة ، لأن العرب كانت تقول (زيد بن محمد) على عادتهم في تبنّي العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ونهى عن سنّة الجاهلية ، وقال : ان محمداً ليس أباً لواحد من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعترى إليه بالنبوّة وذلك لا ينفي كونه أباً لأطفال لم يطلق عليهم لفظة الرجال كإبراهيم وحسن وحسين »[2] .

ثم ذكر كلاماً ، يوضح ما ذكره الإمام محمد الباقر عليه السلام لأبي الجارود ، الذي تلوناه عليك ، فقال :

« ومما يدل على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافة بالنبي عليه السلام ، أنه ما كان يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريّتهما ، وإن بعُدن وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبين وغيرهم . وهذا يدل على مزيد الاقربية ، وهي كونهم أولاده »[3] .

---

(١) لما كان السؤال عن أربعة عناوين كان الجواب متضمناً لأربعة عناوين أيضاً ، ميّزناها بحروف أكثر سواداً .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج١١/٢٦، ٢٧.

(٣) المصدر السابق ج١١/٢٧.

وأصدق شاهد على ذلك تجده في سيرة النبي نفسه ، فقد كان يبذل لأولاد فاطمة ، وللحسن والحسين عليهما السلام بالخصوص ما كان لا يقصر عما يبذله أي أب تجاه أولاده .

« وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي ، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان .

حُزّقه .. حُزّقه .. ترقه .. ترقه. عين بقّه .

وربما شوهد النبي عليه الصلاة والسلام ساجداً وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنّى في صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفي احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : المطية مطيتك[1] ! ..

بل ربّما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول : « صدق الله العظيم إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .

وكان إذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذيني ؟! » .

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففي احدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقي فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة : كأنّه أحبّ إليك؟ قال إنما استسقى أولاً .

---

(١) وفي رواية أخرى ، أنه قال النبي (ص) للحسنين يوماً وقد حملهما على كتفيه : نعم الراكبان أنتما ، ونعم الجمل جملكما .

وقد يلفهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد » .

... وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوّة الأب الصغير »[1] .

(١) عبّاس محمود العقّاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص٤٠ ، دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٦٧ .

وثائـــق :

١ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :« لكل بني أم عصبة ينتمون إليهم إلا ابنيْ فاطمة فأنا وليّها وعصبتها » .

أخرجه الحاكم في (مستدرك الصحيحين) ج٣/ ١٦٤ . وقال : هذا حديث صحيح الإسناد .

٢ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « كل بني آدم ينتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم » .

أخرجه الخطيب في (تاريخ بغداد) ج١١/ ٢٨٥ ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ .

٣ ـ « لكل بني انثى عصبة ينتمون إليه إلا ولد فاطمة فأنا وليّهم وعصبتهم » .

أخرجه المتّقي الهندي في (كنز العمال) ج٦/ ٢٢٠ ـ طبعة حيدر آباد ، الهند ١٣١٢ .

٤ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « كل ولد أب فان عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم »

أخرجه المحب الطبري في (ذخائر العقبى) ص١٢١، طبعة سنة ١٣٥٦ .

٥ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : « وأما أنت يا علي فختني وأبو ولدي ، وأنا منك وأنت منّي » .

أخرجه القندوزي في (ينابيع المودة) ص٢٦٦، طبعة استانبول ١٣٠ .

٦ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ان الله جعل ذريّة كل نبي في صلبه ، وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب » .

رواه جمع غفير من المحدثين إليك بعضاً منهم :ـ

- القندوزي في (ينابيع المودة) ص٢٦٦ .
- ابن المغازلي في (المناقب) ص٤٩ .
- الهيثمي في (مجمع الزوائد) ج٩/ ١٧٢ .
- ابن حجر في (الصواعق المحرقة) ص٧٤ .
- السيوطي في (الجامع الصغير) ج١/٢٣٠ .
- الطيب في (تاريخ بغداد) ج١/٣١٦ .
- محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٦٧ .
- محب الدين الطبري في (الرياض النضرة) ج٢/ ١٦٨ .
- الذهبي في (ميزان الاعتدال) ج٢/١١٦ .
- ابن حجر في (لسان الميزان) ج٣/ ٤٢٩ .
- الزرقاني في (شرح المواهب) ج٢/ ٦ .
- المناوي في (فيض القدير) ج٢/ ٢٢٣ .
- المتقي الهندي في (كنز العمال) ج٦ / ١٥٢ .

لُغَةُ المُعجِزَة

* في لغة الأرقام : ١ + ١ = ٢

وأمّا في لغة المعجزة فان : ١ + ١ = ١,٠٠٠.٠٠٠ ولربّما اللانهاية .

* في لغة المادة : الجماد لا يتكلم ولا يمشي .

أما في لغة المعجزة : فان الحصى تتكلم في يد النبي محمد (ص) ، والشجرة تنقلع من مكانها وتسير بأمر من رسول الله (ص) .

* في لغة المألوف : يستحيل على الميت أن يتكلم .

أما في لغة المعجزة فان : رأس الحسين عليه السلام يتلو القرآن في حين فصل من جسده الطاهر ورفع على رمح طويل فيتلو قوله عزّ من قائل : ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ . . . فيسمعه السامع ويقول : رأسك أعجب يا أبا عبد الله !

* ** *

تلك هي لغة المعجزة. . .لغة لا كاللغات ، ولكنها تفوق كل اللغات .

انها تحقق المستحيل ، وقد سموه في قاموس البشر (مستحيلاً) ، أما في قاموس الاعجاز فهو (ممكن) واعتيادي جداً .

ولعل الاختلاف بين اللغتين ، والبون الشاسع بين القاموسين هو الذي جعل الكثير يشككون في المعاجز الإلهية ، أو يعجزون عن تقديم تفسير معقول لها على الأقل .

ولكنّي أقول : شأن هؤلاء شأن الطالب الذي سمع اصطلاحاً فيزياوياً ولنفرضه (الزخم) فراح يبحث عن معناه في معجم المصطلحات التجارية ، وفي حرف الزاي بالذات فلم يجده . . . هاله ذلك ، وأخذ يقلب الأوراق ويتصفح الحروف الأخرى ، لعله يجد ضالته في حرف الراء باعتبار أن النقطة ربما جاءت طارئة . . فخاب في مسعاه .

وأخيراً ، وبدافع من الغرور ، اعتقد بأن هذه الكلمة ليست ذات معنى !

ونموذج آخر :

هو الذي سمع كلمة فارسية أو إنكليزية فأخذ يبحث عنها في قاموس اللغة العربية . . .

كلا !

لكل لغة قاموس ، ولكل علم مصطلحات ، ولكل شيء مقياس . فكما أن من العبث أن نبحث عن معنى كلمة فارسية في قاموس عربي ، ونفتش عن مصطلح قانوني في معجم فلسفي ، كذلك من العبث - بل الخطأ - أن نبحث في الظواهر المادية المألوفة عن تفسير للمعجزة . . .

وبعد ، فما يمنع الجنين أن يتكلم في بطن أمه ؟!!

تلك هي الزهراء . . . كانت تؤنس أمها (خديجة) في أيام الحمل وتحدثها بما يطيب خاطرها ويبعث الطمأنينة والسرور إلى قلبها !

لقد هجرتها نسوة مكة ، فكن لا يدخلن إلى بيتها ، ولا يسلمن عليها ولا يتركن امرأة تدخل إليها ، هذا الاجراء كان جزءاً من المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي (ص) إبان بعثته .

والمرأة تأنس بقريناتها ، وترتاح لسماع حديث بنات جلدتها ، فإذا ما تركنها وحدها أثر ذلك فيها أيما تأثير . . . لقد استوحشت خديجة لهذه المقاطعة ، وكان جزعها وغمها حذراً على زوجها العظيم الذي تتربص العرب به الدوائر .

وقد شاء الله أن لا يدع هذا القلب العامر بالإيمان يعيش حالة من الضمور والتآكل الداخلي ، فانطق الجنين الذي في بطنها ، وجعلها تحدث أمها حديث النساء في سمرهن ومجالسهن .

لقد دخل عليها النبي (ص) مرة وقال لها : يا خديجة من تحدثين ؟!
قالت : الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني !!

فقال : يا خديجة هذا جبرئيل يبشّرني أنها أنثى ، وإنها النسلة الطاهرة الميمونة ، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها وسيجعل من نسلها أئمة ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه .

* * *

لقد ظلت تحدث أمها بما يبعث الطمأنينة والدعة إلى قلبها طيلة أيام الحمل ، وكانت تذهب عنها الروع . .[1]

---

(١) ممن روى ذلك :ـ
١ ـ الشيخ عبد الرحمان الصفوري الشافعي في (نزهة المجالس) ج٢/٢٢٧
٢ ـ القندوزي البلخي في (ينابيع المودة) ص١٩٨.
٣ ـ العلاّمة حسن بن المولوي أمان الله الدهلوي في (تجهيز الجيش) ص٩٩ مخطوط .
٤ ـ الشيخ شعيب المصري في (الروض الفائق) ص٢١٤.

فيا لها من عظمة !

ويا لها من لمعة مشرقة في قاموس الإعجاز تظل خالدة أبد الدهر .

لقطات خاطفة



حوراء إنسية

الإنسان : روح ومادة .

في الروح إشراق ... وفي المادة ظلمة !

فإذا أخضعت اشراقة الروح قوام الإنسان لسيطرتها ووجهتها الوجهة التي تريد كانت العظمة والشموخ والكمال .

أمّا إذا سيطرت ظلمة المادة على زمام الأمر ووجهت الإنسان وطاقاته حيث تشاء كان التردّي والتسافل والانحطاط .

إشراقة الروح ، ونور الإيمان ، وشعلة العقيدة ... مظاهر حيّة للتعالي الذي يطمح فيه الكثيرون، ويرغبون السير في طريقه ، لكن هذا الطريق يضيق شيئاً فشيئاً حتى لا يستوعب - في قمته - إلا أناساً معدودين ، هم قادة الإنسانية .

والزهراء من أولئك المعدودين ، فقد كانت إلى جانب إنسانيتها تحمل كل صفات الملائكة ، وسمات الحور العين .

كانت إنسانة ... وكانت حوراء .

ولقد قال أبوها العظيم صلّى الله عليه وآله : « خلق الله نور فاطمة قبل أن يخلق الأرض والسماء . » .

فقال بعض الناس : يا نبيّ الله فليست هي إنسيّة ؟!

فقال : فاطمة حوراء إنسيّة »[1] .

ومن علائم الحور العين أنها لا تطمث ، وكذلك الزهراء فانها كانت طاهرة من الحيض والنفاس ، وقد وردت روايات تدل على انها لم ترَ حيضاً

---

(١) محمد تقي سبهر: ناسخ التواريخ ج٣/١٢، قم - ١٣٧٨ .

وفي حديث آخر : « قال رسول الله (ص): ابنتي فاطمة حوراء آدمية لم تحض ولم تطمث » رواه :-

- الحافظ أبو بكر الشافعي في (تاريخ بغداد) ج١٣/٣٣١.
- محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٢٦ مخطوط .
- المولى علي المتقي الهندي في (كنز العمال) ج١٣/٩٤ .
- البدخشي في (مفتاح النجا) ص١٠٠ مخطوط.
- الحضرمي في (رشفة الصادي) ص٤٧.
- الأمر تسري في (أرجح المطالب) ص٢٤٠.
- العلامة المناوي في (شرح الجامع الصغير) ص٣٢٨.
- الحضرمي في (وسيلة المآل) ص٧٨.
- النبهاني في (الشرف المؤبّد) ص٥٤.
- ابن الصبان في (إسعاف الراغبين) المطبوع بهامش (نور الأبصار) ص١٩٦ .

ولا نفاساً[1] .

. . . وهذه ميزة فريدة امتازت بها على بنات حواء ، تذكر لها بفخر واعتزاز .

(1) من أسماء الزهراء الخاصة : البتول .

وعندما نتصفّح كتب الحديث والسيرة نجد إتجاهين في وجه تسميتها بذلك :

الاتجاه الأول : انها انما سمّيت بتولاً لتبتّلها عن الحيض والنفاس .

أ - فقد روى القندوزي في (ينابيع المودة) ص٢٦٠، طبعة اسلامبول عن رسول الله (ص): « وانما سمّيت فاطمة البتول ، لأنها تبتّلت من الحيض والنفاس » .

ب - وروى الكشفي الحنفي في (المناقب المرتضوية) ص١١٩، طبعة بمبئي عن النبي (ص) : « وسمّيت فاطمة بتولاً لأنها تبتّلت وتقطعت عمّا هو معتاد العورات في كل شهر » والحديث عن أمّ سلمة .

جـ - وكذا الحضرمي في (مودة القربى) ص١٠٣ ، طبعة لاهور .

د - ونقل صاحب (أرجح المطالب)عن (الحاكم) حديثاً عن رسول الله (ص) قال فيه : « البتول : التي لم تر حُمرة قط ، أي لم تحض. فان الحيض مكروه في بنات الأنبياء » .

الاتجاه الثاني: انها سميت بتولاً لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً وديناً وحسباً ، أو لانقطاعها عن الدنيا إلى الله ، ذهب إلى ذلك :-

أ - ابن منظور في (لسان العرب) ج١١ ص٤٣، طبعة دار صادر بيروت .

ب - الزبيدي في (تاج العروس).

جـ - عمر رضا كحالة في (أعلام النساء) ج١٢١٧/٣ ، طبعة دمشق .

د - ابن الأثير في (النهاية) ج٧١/١ طبعة مصر .

وبالمقارنة بين الإتجاهين نجد أن الاتجاه الأول تدعمه الأحاديث النبوية ، بينما الاتجاه الثاني • آراء علماء اللغة ومن شاكلهم . أضف إلى ما مرّ عليك من أسانيد في الهامش السابق وفيها عبارة : (لم تحض ولم تطمث).

بضعة النبي

حبّ الرجل لأطفاله أمر غريزي لا يحتاج إلى برهان ، وهو نتاج العاطفة التي تذكو في نفس كل فرد ، فتدفعه لتحمّل المشاق والمتاعب في سبيل أولاده ، والسهر عليهم ، والسعي لدفع كل ما يؤلمهم عنهم .

هذا الحبّ ليس على درجة واحدة عند الآباء ، بل إنه يختلف بحسب الأفراد ، فهناك العاطفة الضعيفة ، والحب المتزن ، والحب المفرط ، والكلف . . . ولكنه في جميع هذه الحالات يظل معبراً عن غريزة إنسانية فعالة .

والحب المفرط يكون نابعاً من أحد أمرين

أ ـ الجهل : وهذا يؤدي إلى تجاوز الحدود المعقولة بالسماح للطفل في فعل ما يشاء وترك ما يشاء ، حتى لو خرج على الآداب والنواميس الاجتماعية السائدة . هذا النوع من الحب مذموم جداً . . وهو في الحقيقة عداء في لباس الحب .

ب ـ الوعي لمدى اتساع مواهب الطفل ، وإدراك عمق أسس شخصيته في هذه الصورة يكون الإفراط في الحب أمارة على احترام تلك المواهب وتقدير تلك الشخصية، وهو يساعد على ظهور كل القابليات المضمرة إلى حيز الفعلية .

وبعد ، فلم يكن النبي صلّى الله عليه وآله بالذي يتصوّر فيه الجهل أو العبث . . .

ان كل حركة من حركاته كانت منبعثة من حكمة ودراية !

وكل خطة من خططه كانت مستندة إلى وعي وإدراك !

لم يكن بالذي تدفعه العاطفة الى اضفاء سمات على أشخاص ليسوا جديرين بها ، أو مدح أفراد بعبارات تكون أقرب إلى الخيال من الواقع . انه الرسول الصادق الأمين ، وكفى فيه فخراً قوله عزّ من قائل ﴿وانّك لعلى خلق عظيم﴾ .

أحبَّ الزهراء أيما حب ، وكلف بها أيما كلَف . . وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد ، وكانت هي جديرة بكل ذلك المدح والإطراء .

لقد قال عنها فيما قال :

« فاطمة بضعة منّي ، فمن أغضبها فقد أغضبني »[1] .

وقال أيضاً :

« فاطمة بضعة منّي ، يؤذيني من آذاها ويسرّني ما أسرّها »[2] .

وفي رواية أخرى :

إنّما فاطمة بضعة منّي يؤذيني من آذاها ، وينصبني من أنصبها »[3] .

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح ، نقلاً عن القندوزي ينابيع المودة ص١٧١.
(٢) مسلم : الجامع الصحيح ، نقلاً عن القندوزي : ينابيع المودة ص١٧١ .
(٣) ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة ص١٦٨.
ولمزيد من الاطلاع على طرق هذا الحديث وأسانيده لاحظ :-
صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق ، باب مناقب قرابة رسول الله .
وكتاب النكاح ، باب ذبّ الرجل عن ابنته.
وصحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة .
وصحيح الترمذي ج٢ ص٣١٩.

وحق لها أن تنفرد بهذا اللقب ، فهي بضعة النبي حقاً ، أشبهته خلقاً ومنطقاً ، وواكبت رسالته منذ البدء ، فوعت من ذلك أشياء وأشياء . . . ثم استمرت تسند الإمتداد الطبيعي للرسالة في ظل الإمامة ، تسنده بكل ما أُوتيت من حول وطول .

وحق لها أن تكون سيّدة نساء العالمين ، والبتول العذراء ، والطاهرة الزكية دون غيـرها من بنات النبي صلّى الله عليه وآله وسلم .

- ومستدرك الصحيحين ج٣ ص١٥٨.
- وحلية الأولياء لأبي نعيم ج٢ ص٤٠.
- وكنز العمال ج٦ ص٢١٩ وج٨ ص٣١٥.
- وخصائص النسائي ص٣٦.
- والصواعق المحرقة لابن حجر ص١٠٧.
- ومسند احمد بن حنبل ج٤ ص٣٢٨.
- وفيض القدير للمناوي ج٤ ص٤٢١.

وثـائـق :

١ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة « إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » .

ـ الحاكم النيسابوري في (مستدرك الصحيحين ج٣/ ١٥٣) طبعة حيدر آباد دكن سنة ١٣٢٤ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد .

ـ ابن الأثير في (أسد الغابة) ج٥/٥٢٢ ، المطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٥ .

ـ ابن حجر في (الإصابة) ج٨/ ١٥٩ ، طبعة مصر على طبعة كلكتا سنة ١٨٥٣ .

ـ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) ج١٢ ـ ٤٤١ ،طبعة حيدر آباد دكن سنة ١٣٢٥ .

ـ المتّقي الهندي في (كنز العمال) ج٧ / ١١١ ، طبعة حيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ . وج١٣/ ٩٦ وج١٦/ ٢٨٠ من طبعة أخرى .

٢ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله عزّ وجلّ يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها » .

ـ المتقي الهندي في (كنز العمال) ج٦/٢١٩ ، طبعة حيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ .

٣ ـ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لفاطمة سلام الله عليها :
« إن الربّ يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » .

ـ الذهبي في (ميزان الاعتدال) ج٢/ ٧٢، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ .

ـ محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٣٩، مكتبة القدسي بمصر .

ـ سبط ابن الجوزي في (التذكرة) ص٣٢٠، مطبعة الغري .

ـ السيوطي في (الخصائص) ج٢/٢٦٥، طبعة حيدر آباد .

ـ المناوي في (كنوز الحقائق) ص٣٢، طبعة بولاق .

ـ القندوزي في (ينابيع المودة) ص١٩٨ وص١٧٣ طبعة اسلامبول .

ـ الدكتورة بنت الشاطىء في (موسوعة آل النبي) ص٥٦٤ طبعة بيروت .

أُمّ أَبيهــــا

وبلغ من حبّ الرسول صلّى الله عليه وآله ، لابنته فاطمة أنه كان يكنّيها بـ (أمّ أبيها) .

إنّه اليُتم يجعل من الطفل يحنّ إلى أنثى تحنو عليه بدل أمه . فقد توفيت (آمنة بنت وهب) أم النبي (ص) وهو طفل صغير ، فتعلق قلبه حينذاك بـ (فاطمة بت أسد) أم علي عليه السلام .

لقد كان يناديها : يا أمّاه !

وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً وسُمع يقول : ماتت أمي ! .

ورُزق (ص) فاطمة ، وكلما رآها ذكر فاطمة بنت أسد ، وتسلّى بابنته عنها ، وقد كنّاها بـ (أمّ أبيها) . .

ولقد كان يجد في (فاطمة) ما يجده الولد ويلمسه في أمّه من الحنان والدفء والحنوّ أكثر مما يجده الأب ويلمسه في إبنته .

وقد تواترت الروايات بأنه صلّى الله عليه وآله وسلم إذا أراد السفر كان آخر عهده بفاطمة وإذا رجع كان أول عهده بها[1] ..

(١) رواه جمع غفير من الأعلام منهم البيهقي في (السنن الكبرى) ج١/٢٦ ، ومحب

إنه الرسول العبقري . . . لا يهب الألقاب عبثاً ، ولا يمنح الكنى تشهّياً ، وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه .

وسيّان في هذا العمود من النور ، المتطاول برأسه الى عنان السماء ، أن تكون (فاطمة) بنتاً لأبيها ، وأما له . . .

وسيّان في دوحة الشرف أصل وفرع ، ما دام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير من اللحوق به .

الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٣٧، والزرندي في (نظم درر السمطين) ص١٧٧ ، والصبان في (إسعاف الراغبين) ص١٩٠ ، والقندوزي في (ينابيع المودة) ص١٩٨ ، والحاكم في (المستدرك على الصحيحين) ج١٥٦/٣ .

سَيّدة نساءِ العالمين

لا شكّ أن (مريم) قدّيسة عند المسيحيين ، وهي كذلك عند المسلمين لأنّها كانت أهلاً لولادة ذلك المولود الطاهر ، المتحمّل لأعباء الرسالة : عيسى .

وفي مجال الحديث عن النساء المسلمات ، يطرح السؤال نفسه :

من هي المرأة المُثلى ؟ وإلى من تمتدّ الأعناق بين المسلمين حين تُطرح الأسماء ؟

إنّها (**فاطمة الزهراء**) بلا منازع !!

ولا يهمّنا هنا تحليل ما ذكره أصحاب الأقلام المدسوسة ، المليئة حقداً وغيظاً على الإسلام وقيمه ، من حملة التبشير ودعاة الصهيونية ، أمثال المستشرق (لامنس) في كتابه عن الزهراء عليها السلام . . . لكنا نشير إلى فرية سخيفة جرت على لسانه حيث يقول : « ان فاطمة بنت محمد لم يكن لها شأن يذكر حين زواجها وبعده ، وقد تناساها المؤرحون ولم يحفلوا بها قبل ظهور فكرة التشيّع في الإسلام ، فلما ظهرت فكرة التشيّع عادوا يطيلون الحديث عنها ، وأخذت شهرتها تتّسع وتذاع » .

اقرأ هذا ، وتلمّس مواضع الحقد الدفين في عبارات هذا

المستشرق ، ثم تصفّح كتب الحديث والسيرة لأعلام العامة الذين لم يكن يدفعهم دافع التشيّع إلى إطالة الحديث عن مناقب الزهراء، لترى كيف وصفها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بسيّدة النساء .

١ ـ فقد روى الحافظ (أبو داود) باسناده عن عائشة قالت : « كنّا عند رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه ما يغادر منا واحدة ، إذ جاءت فاطمة تمشي ، ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله (ص) شيئاً ، فلما رآها قال : مرحباً بابنتي ، فأقعدها عن يمينه أو عن يساره ، ثم سارّها بشيء فبكت ، فقلت لها أنا من بين نسائه : خصّك رسول الله (ص) من بيننا بالسرار وأنت تبكين ؟ ثم سارّها بشيء فضحكت قالت : فقلت لها : أقسمت عليك بحقي أو بمالي عليك من الحق لما أخبرتني ، قالت : ما كنت لأفشي على رسول الله (ص) سرّه .

قالت : فلما توفّي النبي (ص) سألتها فقالت : أما الآن فنعم ، أما بكائي : فان رسول الله (ص) قال لي : إن جبرئيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كل عام مرّة ، فعرضه عليّ العام مرّتين ، ولا أرى إلا أجلي قد اقترب ، فبكيت . فقال لي : اتقي الله واصبري فاني أنا لك نعم السلف . ثم قال : يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء العالمين ، أو سيّدة نساء هذه الأمّة ؟! فضحكت »[1] .

٢ ـ وروى المؤرخ الشهير (ابن سعد) حديثاً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم قال : « أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمة ، أو نساء العالمين . . »[2] .

---

(١) مسند أبي داود ص١٩٦، طبعة حيدرآباد.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٨/٢٦، دار صادر ـ بيروت .

الخصائص للنسائي ص٣٤ ، مطبعة التقدم بمصر.

المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج٣/١٥٦ طبعة حيدرآباد.

الاستيعاب لابن عبد البر ج٢/٧٥٠ طبعة حيدر آباد.

حلية الأولياء لأبي نعيم ج٢/٣٩ مطبعة السعادة بمصر .

٣ ـ وفي حديث آخر تسأل فاطمة الزهراء أباها الرسول صلّى الله عليه وآله : « يا أبه ، فأين مريم ابنة عمران ؟ قال تلك سيّدة نساء عالمها ، وأنت سيّدة نساء عالمك »[1] .

إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة . . .

أسد الغابة لابن الأثير ج٥/٥٢٢ طبعة بمصر.

(١) رواه جماعة من أعلام العامة منهم :-

أبو نعيم في (حلية الأولياء) ج٢/٤٢ مطبعة السعادة بمصر.

ابن عبد البر في (الاستيعاب) ج٢/٧٥٠ طبعة حيدر آباد .

أخطب خوارزم في (مقتل الحسين) ص٧٩ مطبعة الغزي .

الطحاوي في (مشكل الآثار) ج١/٤٨ طبعة حيدر آباد .

محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى) ص٤٢ طبعة مكتبة القدسي بمصر .



حَجَرُ الزّاوِيَة

١- على عتبة الزواج

٢- في بيت الزوج

٣- المرأة الكاملة

٤- ثمار من دوحة الرسالة

٥- التربية الفاطمية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على عتبة الزواج

والآن أصبحت الزهراء (ع) شابة يافعة ، تتوفر فيها كل عناصر النجاح في خوض تجربة تكاد تواجه جلّ بنات حواء . . .

فالجمال المفرط ، والخُلق الفاضل ، والفصاحة التامة ، والبلاغة الراقية والشرف العريض ، والنسب المشرق ، وغير ذلك من أغراض سياسية واجتماعية ، كانت مدعاة إقبال الكثيرين من الاشراف وغير الأشراف على مفاوضة النبي (ص) بشأن الزواج من ابنته الصدّيقة .

أما وقد كان من بين هؤلاء المتقدمين لطلب يد الزهراء عليها السلام من هو من الصحابة الذين ربما لا يشكّون في أن النبي (ص) سيوافق على مصاهرتهم إياه ، فذلك ما لا يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير .

لقد تقدّم أبو بكر لخطبتها فكان جواب النبي (ص) له :

- أنتظر بها القضاء .

وتقدم عمر لخطبتها أيضاً ، فلم يكن جواب النبي (ص) له بالذي يختلف عن جوابه لصاحبه من قبل .

وتقدم لخطبتها آخرون . فقد ذكر مالك بن أنس أنه ورد

عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان إلى النبي ، فقال له عبد الرحمن :

يا رسول الله تزوجني فاطمة ابنتك ، وقد بذلت لها من الصداق مائة ناقة سوداء زرق الأعين محملة كلها قباطي مصر ، وعشرة آلاف دينار ؟!!

وقال عثمان :

وأنا أبذل ذلك ، وأنا أقدم من عبد الرحمن إسلاماً !!

فغضب النبي من مقالتهما ، فتناول كفاً من الحصى فحصب به عبد الرحمن وقال له : إنك تهول علي بمالك .

فتحول الحصى دراً فقوّمت درة من تلك الدرر فإذا هي تفي بكل ما يملكه عبد الرحمن .

وهذا كان يبوء كل من تقدم لخطبة الزهراء بالفشل ، راجعين وقد علموا أن في الأمر سراً ستكشف عنه الأيام .

* * *

واستقر النبي والمهاجرون معه في المدينة . . .

وكانت الخطوة الأولى إقامة ركيزة إسلامية تكون منتدى للمسلمين ، ومجالاً للانطلاق منه ، فأمر النبي ببناء المسجد ، كما أمر ببناء دور من حوله له ولزوجاته .

وكان عليّ عليه السلام لا يزال في بيت النبي ، وهو الآن ذرف على العشرين ، وفي هذه السنّ تتفتح في نفس كل شاب براعم الغريزة الجنسية ويندفع ـ طبيعياً ـ إلى البحث عن شريكة له في الحياة .

وقواعد الإسلام في الزواج تقوم على الكفاءة والتماثل بين الزوجين .

عليّ ذلك البطل العملاق .

وهو ذلك المؤمن السابق إلى الإسلام .

وهو ذلك الرجل المتحلّي بالفضائل والمُثل العليا ، والصفات الحميدة التي يُحسد عليها ، ويُشار إليه بالبنان فيها .

وهو في نفس الوقت ابن عم فاطمة الذي ينحدر وإياها من سلسلة شريفة واحدة فمن يا ترى أكفأ منه لها ، ومنها له؟!!

فما الذي كان يمنع عليّاً من أن يتقدم لخطبة ابنة عمّه ؟

تقول بعض الروايات : كان يمنعه من ذلك قلّة ذات اليد . . .

وليست الكفاءة المفروضة بين الزوجين مادية حتى تستقرّ النفس إلى مثل هذا التعليل ، خصوصاً وقد تضافرت الروايات على أن الله اختار علياً زوجاً لفاطمة ، واختارها زوجة له .

١ ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « لولا أن الله تعالى خلق أمير المؤمنين علياً عليه السلام لفاطمة عليها السلام ما كان لها كفو على ظهر الأرض من آدم فما دونه »[١] .

٢ ـ وفي رواية ابن مسعود عن النبي (ص) قال : « إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوج فاطمة من عليّ »[٢] .

٣ ـ وفي رواية اخرى ينقلها الخوارزمي : « ان رسول الله (ص) خرج على أصحابه ووجهه مشرق كدائرة القمر ، فسأله عبد الرحمن بن عوف فقال : بشارة أتتني من ربّي في أخي وابن عمّي وابنتي بأن الله زوّج عليّاً من فاطمة . . . »[٣] .

٤ ـ وفي حديث آخر : « ان جبرائيل جاء إلى النبي (ص) فقال : ان الله يأمرك أن تزوّج فاطمة من علي »[٤] .

---

(١) محمد بن يعقوب الكليني: الكافي.
(٢) ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة ص١٠٧
(٣) المصدر السابق ص١٥٢.
(٤) القندوزي: ينابيع المودة ص١٧٦.

إلى غير ذلك مما هو صريح في أن التزويج كان بأمر من الله ووفقاً لمشيئته .

* * *

نعم ، يستفاد من روايات اخرى ذكرها كل من ابن حجر في (الصواعق المحرقة) وأبي داود السجستاني في (مسنده) والقندوزي في (ينابيع المودة) واحمد بن حنبل ، والحسن البصري أنه جلس أبو بكر وعمر في مسجد رسول الله (ص) ومعهما سعد بن معاذ الأنصاري فتذاكروا أمر فاطمة الزهراء .

فقال أبو بكر : قد خطبها الأشراف من رسول الله ، فقال (ص): إن أمرها إلى ربّها ، إن شاء أن يزوجها . وان عليّ بن أبي طالب لم يخطبها من رسول الله ولم يذكرها له ، ولا أراه يمنعه من ذلك إلا قلة ذات اليد ، وإنه ليقع في نفسي أن الله ورسوله إنما يحبسانها عليه .

ثم أقبل أبو بكر على عمر بن الخطاب ، وعلى سعد بن معاذ فقال :

هل لكما في القيام إلى عليّ بن أبي طالب حتى نذكر له هذا ، فان منعه قلة ذات اليد واسيناه وأسعفناه .

ثم خرجوا من المسجد فالتمسوا علياً في منزله فلم يجدوه ، وكان ينضح الماء ببعير كان له على نخل رجل من الأنصار ، فانطلقوا نحوه ، فلما نظر إليهم عليّ عليه السلام قال :

ما وراؤكم وما الذي جئتم له ؟

فذكر له أبو بكر ما تحادثا عليه ورغبه في أن يتقدم لخطبة الزهراء من رسول الله صلّى الله عليه وآله .

عندئذ تغرغرت عينا علي بالدموع وقال : لقد هيجت مني ساكناً وأيقظتني لأمر كنت عنه غافلاً . والله إن فاطمة لموضع رغبة ، وما مثلي قعد عن مثلها غير أنه يمنعني من ذلك قلّة ذات اليد .

فقال أبو بكر : لا تقل هذا يا أبا الحسن فان الدنيا وما فيها عند الله ورسوله كهباء منثور .

تقول الرواية : عند ذلك توجّه عليّ إلى النبي (ص) وكان في منزل زوجته أم سلمة فدقّ الباب .

فقالت أم سلمة : من بالباب ؟

فقال لها رسول الله من قبل أن يجيب عليّ: قومي فافتحي له الباب ، ومُريه بالدخول فهذا رجل يحبه الله ورسوله ويحبهما .

فدخل علي ؛ وفاتح النبيّ (ص) بشأن فاطمة . . .

تقول أم سلمة : فرأيت وجه رسول الله يتهلل فرحاً وسروراً .

ثم قال رسول الله (ص): إن الله عزّ وجل قد زوجها في السماء من قبل أن أزوجها في الأرض .

ومهما يكن من شأن هذه الزواية فان ما لا مجال لشك فيه أن الله اختار علياً لفاطمة ، ولا بد للاقدام على مثل هذا الأمر وتحققه من بوادر ومقدمات ربما كانت هذه المحاورات جزءاً منها .

* * *

وبكل ما للبساطة من معنى تمّ الزواج الميمون ، وكان الصداق درعاً حطمية باعها الإمام عليه السلام بأربعمائة وثمانين درهماً ، وأتى بالمبلغ ووضعه بين يدي النبي (ص).

وزع النبي المبلغ على النحو التالي:ـ

١٦٠ درهماً لشراء العطور .

١٦٠ درهماً لشراء الثياب .

٠٦٦ درهماً لمتاع البيت .

٠٩٦ درهماً دفعها الى أم سلمة لتبقيه لديها .

وكان أن كلف بلالاً بشراء العطور

كما انه اختار هيئة لشراء الثياب والمتاع من بينهم أبو بكر وعمّار بن ياسر . فاشترت الهيئة الجهاز التالي :

١ - قميص بسبعة دراهم !

٢ - خمار بأربعة دراهم !

٣ - قطيفة سوداء خيبرية !

٤ - سرير ملفوف بشريط من الخوص !

٥ - فراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف ، وحشو الآخر من صوف الغنم !

٦ - أربع مرافق (متكئات) من ادم الطائف حشوها (إذخر) وهو نبات طيب الرائحة .

٧ - ستر رقيق من الصوف !

٨ - حصير هجري !

٩ - رحى يد !

١٠ - مخضب من نحاس لغسل الثياب .

١١ - قربة صغيرة .

١٢ - قدح من خشب !

١٣ - قربة صغيرة لتبريد الماء .

١٤ - مطهرة (إناء مزفت) .

١٥ - جرة خضراء !

١٦ - كيزان من خزف .

١٧ - بساط من الجلد !

١٨ - عباءة قطوانية .

وحملت الهيئة هذا الجهاز إلى الرسول ، فلما عرض عليه جعل يقلبه

بيده ويقول : بارك الله لأهل البيت[1] .

وفي رواية اخرى أنه قال : « اللهم بارك لقوم جل آنيتهم الخزف »[2] .

أما الإمام عليه السلام فقد اقتصر إعداده لبيت الزوجية على ما يلي :

١ ـ فرش حجرة النوم بالرمل الناعم .
٢ ـ نصب خشبة من حائط إلى حائط .
٣ ـ اهاب كبش ومخدة ليف وضعها على الأرض .
٤ ـ منشفة علقها على الحائط .
٥ ـ وضع على الأرض قربة ماء ومنخلاً لنخل الدقيق[3] .

* * *

هذه الصورة الناصعة من تزويج الزهراء تنقلنا إلى المبدأ الإسلامي العظيم في التخفيف عن كاهل الأزواج بالنسبة إلى المهور والإعداد لبيت الزوجية ، وهو الحل الحاسم لكثير من المشاكل الجنسية التي يضج العالم المتمدن منها .

أجل ! بهذه الصورة الساذجة تم التزويج وبقي الإمام عليه السلام طيلة شهر لا يذكر اسم فاطمة أمام رسول الله حياء .

وذات يوم اجتمعت نساء النبي صلّى الله عليه وآله عند الإمام عليه السلام ، وقلن له : ألا نطلب لك من رسول الله دخول فاطمة عليك ؟

فقال لهن : افعلن .

---

(١) الشيخ عباس القمي، بيت الأحزان ص١٧.
(٢) عبد المجيد لطفي، الإمام علي رجل الإسلام المخلد، ص٦٠.
(٣) المصدر السابق ص٦٠.

فدخلن على رسول الله ، قالت ام ايمن : يا رسول الله لو ان خديجة باقية اقرت عينها بزفاف فاطمة ، وإن علياً يريد أهله ، فقرّ عين فاطمة ببعلها واجمع شملها وقرّ عيوننا بذلك .

وما ان سمع النبي صلّى الله عليه وآله باسم خديجة حتى تغرغرت عيناه بالدموع ، وأن لها أنة ثم قال : خديجة !!

وأين مثل خديجة ؟!!

صدقتني حين كذّبني الناس ، وآزرتني على دين الله ، وأعانتني عليه بمالها ـ إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أبشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب الزمرد ولا صخب ولا نصب .

يا له من وفاء تام لزوجته التي قام الدين في أحد عماديه على مالها ، وفي العماد الآخر على سيف ابن عمه علي عليه السلام !!

ثم قال صلّى الله عليه وآله : ما بال علي لا يطلب منّي زوجته ، فقد كنا نتوقع ذلك منه .

فقال علي عليه السلام : الحياء يمنعني يا رسول الله .

عند ذاك التفت النبي إلى النساء وقال : من هاهنا ؟

فقالت أم سلمة : أنا أم سلمة ، وهذه زينب ، وهذه عائشة . . ،الخ .

فقال رسول الله (ص) : هيّئوا لابنتي وابن عمي في حجرتي بيتاً . فأعدت أم سلمة غرفتها للعروسين .

ثم أمر رسول الله علياً بأن يصنع لأهله طعاماً فاضلاً ، وقال له : من عندنا اللحم والخبز ، وعليك التمر والسمن .

فاشترى الإمام عليه السلام التمر والسمن وأمر الرسول صلّى الله عليه وآله بذبح كبش سمين ، وخبز خبزٍ كثير ، ثم حسر عن ذراعيه ،

وجعل يشدخ التمر في السمن حتى اتخذه حيساً ، فاجتمع من ذلك طعام كثير ، ثم قال يا عليّ ادع من أحببت .

فأتى الإمام عليه السلام إلى المسجد وهو مشحون بالصحابة ، فكره أن يدعو قوماً دون قوم ، فصعد على ربوة ، وقال : أجيبوا الى وليمة فاطمة .

فأقبل الناس ارسالاً . . .

يقول الإمام عليه السلام : فاستحييت من كثرة الناس وقلة الطعام ، فعلم رسول الله (ص) ما تداخلني فقال : يا علي إني سأدعو الله بالبركة .

فأكل القوم عن آخرهم وقد بلغوا أربعة آلاف دون أن ينقص من الطعام شيء .

ولم ينس الرسول (ص) زوجاته ، بل دعا بالصحاف فملئت ووجه بها إلى منازلهن ، ثم أخذ صحناً وجعل فيه طعاماً وقال : هذا لفاطمة وبعلها .

* * *

كانت الشمس ترسل آخر أشعتها الذهبية الى الأرض ، حين دعا النبي صلّى الله عليه وآله أم سلمة ، وقال لها : هلمّي فاطمة .

فانطلقت أم سلمة وأتت بها وهي تسحب أذيالها ، وقد تصببت عرقاً حياء من والدها العظيم فعثرت ، فقال لها أبوها بكل حنان ودفء : أقالك الله العثرة في الدنيا والآخرة .

وحان موعد الزفاف فأتى النبي (ص) ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة وقال لفاطمة : إركبي ، وأمر سلمان أن يقود بها ، ومشى هو خلفها ومعه حمزة وجعفر وعقيل وبنو هاشم مشهرين سيوفهم ، وقدامها نساء النبي يرجزن مع بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار .

كانت أم سلمة تقرأ :

سرن بعون الله جاراتي واشكرنه في كل حالات
واذكرن ما أنعم رب العلى من كشف مكروه وآفات
وقد هدانا بعد كفر وقد أنعشنا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى تفدى بعمات وخالات
بنت من فضله ذو العلى بالوحي منه والرسالات

أما عائشة فكانت تنشد :

يا نسوة استترن بالمعاجر واذكرن ما يحسن في المحاضر
واذكرن رب الناس قد خصنا بدينه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على إفضاله والشكر لله العزيز القادر
سرن بها والله أعلى ذكرها وخصها منه بطهر طاهر

واخذت حفصة تنشد :

فاطمة خير نساء البشر ومن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على ذا الورى بفضل من خص باي الزبر
زوجك الله فتى فاضلا أعني علياً خير من في الحضر
فسرن جاراتي بها انها كريمة بنت عظيم الخطر

وقالت معاذة أم سعد بن معاذ :

أقول قولاً فيه ما فيه وأذكر الخير وأبديه
محمد خير بني آدم ما فيه من كبر ومن تيه
بفضله عرفنا رشدنا فالله بالخير يجازيه
ونحن مع بنت نبي الهدى ذي شرف قد مكنت فيه
في ذروة شامخة أهلها فما أرى شيئاً يدانيه

وكانت كلما تقرأ إحداهن تردد البواقي أول بيت من الرجز ويكبرن إلى أن دخلن الدار . وفي دار الزوجين أنفذ الرسول إلى علي فدعاه ، ثم هتف بفاطمة وأخذ علياً بيمينه وفاطمة بشمالها ، ووضع يدها في يد علي ،

ثم قال : إذهبا إلى بيتكما جمع الله بينكما ، وأصلح بالكما ، أستودعكما الله .

ثم أغلق عليهما الباب . . .

في بيت الزوج

في بيت فاطمة تظهر صورة رائعة لمواساة الفقراء ، فقد أبت إلا أن يكون بيتها على مستوى من البساطة لا يجعل عيون الطبقة الضعيفة من المجتمع عالقة به .

ومع أنها بنت النبي وبضعته الطاهرة ، فقد بدأت العمل في البيت من أول يوم ، ودأبت على ذلك مدة طويلة ، إلى أن نالها من النصب ما جعلها ترجو النبي صلّى الله عليه وآله في استئجار خادم لها ، تساعدها في شؤون المنزل ، فأنفذ لها جارية للخدمة سمّاها (فضة).

تقول بعض الروايات : إنها استقت بالقربة حتى أثر في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها .

وإذ حصلت على خادمة فانها لم تخلد إلى الراحة ، بل ظلّت تعاون (فضة) حتى جعلت الخدمة لها يوماً ولخادمتها يوماً . . .

الله لروعة الإنسانية والرأفة في الإسلام !

هذه إبنة الرسول الاعظم تأبى أن تترك العمل كله على خادمتها ، وتربأ بنفسها أن تكون السيدة العاطلة التي لا يهمها سوى تزيين نفسها ، واعداد الملابس الفاخرة للاشتراك في المجالس والمناسبات .

إنها - بذلك - تضرب أروع المثل للزوجة الوفية لزوجها ، والشاعرة بمسؤوليتها ، والمواساة لمن هي دونها .

* * *

وبلغ من وفائها لزوجها أيضاً انها كانت تخفي آلامها عنه ، ولا تشكو إليه ما يهدّد استقرارها وطمأنينتها من غصص تتجرعها على مضض .

تخنقها العبرة . . . ولكن ما أن يفاجئها زوجها الإمام ، حتى تبتسم له ، وتهشّ وتبشّ .

تنهش الهموم قلبها الرقيق . . . ولكنها تتمالك على نفسها من أن تتحسر بآهة أو تبرز أنّة .

كل ذلك رعاية لعواطفه من أن تُجرح ، ولآلامه من أن تزداد ، وللرحب من أن يضيق عليه !

ومن هنا ينكشف الزيف في الفرية التي اختلقها البغض للطعن في سلوك الإمام مع الزهراء أو العكس . . .

ذلك أنّهم زعموا أن مشادّة حصلت بين الزهراء والإمام عليهما السلام أدت إلى هجر الإمام لها ، وخروجه إلى حوالي المدينة ، ثم استلقائه على الرمل ، واطلاع النبي صلّى الله عليه وآله على ذلك ، وخروجه للبحث عن الإمام ، وأخيراً العثور عليه نائماً على الأرض والعرق يتصبب من وجهه فيناديه : قم ، يا أبا التراب ، ويقوم الإمام عليه السلام وتنتهي الفرية بمصالحة النبي بين الزوجين .

هذه القصة - كأي حدث تأريخي آخر - قابلة لأن توضع على طاولة التشريح من جانبين : من الخارج ، ومن الداخل [1] .

---

(١) محمد مهدي شمس الدين : التاريخ الإسلامي منهجاً وأسلوباً ، مقال منشور في مجلة النجف : السنة الثانية / العدد الأول ص١٤ .

أما الخارج : فهو عبارة عن السند ، والنص .

وأما الداخل فهو عبارة عن عنصر الزمان ، والمكان ، والإنسان .

ولذلك فلا بد من فحص كل رواية يشك في صحتها للتأكد من سلامتها ، هذا الفحص يتعلق تارة بالسند ، واخرى بالنص . ذلك أن من الضروري أن نستوثق من حالة الرواة لنعرف إن كانوا خليقين بالاعتماد عليهم من حيث أمانتهم في النقل ووثاقتهم ، أو ان سلوكهم يجعلهم موضع شك من هذه الجهة .

هذا الأمر ضروري جداً ، فان احتمال كون الراوي منحازاً إلى فئة سياسية معينة ، أو كذاباً ، أو ضعيف الحفظ يهدم أساس الرواية وتصبح عند ذاك فاقدة لدلالتها على المطلوب .

خصوصاً وأن كثيراً من الأفراد قد احترفوا الوضع في الأحاديث في فترات قديمة ، ويكفي أن نسمع أن ابن أبي العوجاء قال عن نفسه : « لقد وضعت في رواياتكم أربعة آلاف حديث حلّلت فيها الحرام وحرّمت فيها الحلال » لندرك أهمية هذه المرحلة من منهج البحث .

هذا ما يتعلق بالسند . أما النص فلا بد من التأكد من جهته ، لأن التاريخ الإسلامي لم يدون إلا في وقت متأخر ، وظلت الرواية تعتمد فترة طويلة من الزمن على النقل من الذاكرة ، ولذلك فان النص عرضة للزيادة والنقصان والتحريف دائماً . ولا يخفى أن أبسط تغيير في النص يؤدي إلى قلب المعنى رأساً على عقب ، وعدم إفادة المعنى المقصود في الرواية .

أما الرواية من الداخل فانها تتكون غالباً من ثلاثة عناصر :-

الزمان . .

والمكان . .

والإنسان . .

ولا بدّ للتأكد من صحّة الرواية من هذا الجانب أن نرى هل الوضع

الاجتماعي والحضاري السائد في الفترة التي تتحدث عنها الرواية ، وفي المكان الذي يفترض أن الأحداث قد وقعت فيه ، يتنافى أو لا يتنافى مع الصورة التي تقدمها الروايه . . . ثم التأمل في مدى انسجام ما تتحدث عنه الرواية مع طبيعة الشخص أو الجماعة التي تتحدث عنها الرواية، وهل يمكن حسب الموازين النفسية أن يقوم الشخص أو الجماعة المعينة بهذا النوع من النشاط ؟!

* * *

وإذا أردنا تطبيق هذا المنهج في النقد التاريخي على الرواية الآنفة الذكر فاذا نجد :ـ

أولاً : من الخارج ـ

أ ـ السند :

ينتهي السند في هذه الرواية الى (أبي هريرة)، وهو ذلك الوضاع الذي لم يتورع استجابة لميوله واهوائه السياسية من أن يكذب على الرسول في أكثر من اثني عشر ألف حديثاً . لقد همّ عمر بن الخطاب أن يضربه بالدرة مرة لأكاذيبه ، وفي روايته عن لسان الرسول الأعظم : أن الذبابة إذا سقطت في إناء ، فعلى الرجل أن يغمس الذبابة في الماء ثم يخرجها ويرمي بها ففي ذلك الشفاء[1] غنىً عن شرح حاله

يا للسخف .

ويا للتفاهة.

ويا للخبث . . . الرسول الأعظم أجل من أن يتكلم بمثل هذه الكلمات، وهو القائل : (النظافة من الإيمان) .

ب ـ النص :

---

(١) محمود أبو رية: شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي .

ان انفراد أبي هريرة بهذا النص لا يدع مجالاً لمعرفة الزيادة أو النقصان أو التحريف في النص ، لأن ذلك يحصل عند مقارنة نصين أو أكثر ببعضها البعض . . . لكن هذا الحادث ـ لو كان صحيحاً ـ لكان جديراً باهتمام الرواة ، لأنه يقصد منه النيل من شخصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فانفراد أبي هريرة بها يضعف في النفس الثقة والإطمئنان بصحة صدورها .

ثانياً : من الداخل :ـ

أ و ب ـ الزمان والمكان :

الزمان : صدر الإسلام . والمكان : المدينة المنورة ، حيث المجتمع المحافظ الذي أخذت تعاليم الإسلام العظيمة تستقر في كل بيت ، وبدأ إلتزام غالبية المسلمين بمثل الإسلام وأخلاقه الفاضلة واضحاً تماماً في أواخر حياة النبي صلّى الله عليه وآله .

ومع هذه الصورة فان شقاقاً يحصل بين الإمام عليه السلام والزهراء لا يجد له ما يسنده في مثل هذه الظروف .

جـ ـ الإنسان :

الإنسان في هذه الفرية هو عليّ بن أبي طالب : رجل الإسلام المخلد ، وسيف الحق ، وخليفة النبي ، والإمام المعصوم .

فكيف يتصور منه القيام بذلك ؟

ثم ان الزهراء عليها السلام إذا كانت تتمالك على نفسها من التظاهر بالألم والتعب أمام زوجها الوفي خوفاً عليه من أن يزداد همه وغمه ، كيف يعقل أن تتخذ من حوار اعتيادي بينها وبينه ذريعة لتشكوه إلى أبيها العظيم ؟

هذه الملاحظات تكشف لنا ـ بوضوح ـ الزيف المقصود في هذه الفرية ـ والنفسية الحاقدة التي كانت تكن الكيد والشر لقائد الإسلام المظفر

وإمام المسلمين العظيم . . . وهي ان أخذناها بمنظار أوسع تؤكد الحاجة الماسة إلى مطالعة التاريخ الإسلامي بيقظة وحذر شديدين بغية استخراج الأحداث المختلقة منه ، وتجريد الوقائع التي سجلت طبقاً لأهواء الحاكمين من خلاله رجاء الانتهاء بعد ذلك إلى صورة ناصعة عن تاريخنا المجيد .

المـــرأة الكاملـــة

ولئن قيل : ان في المرأة نقصاً طبيعياً ، يمنعها من مسايرة الرجل في رجاحة عقل ، وعمق تفكير ، وصلابة وثبات . . . فذلك ما لا ينطبق على الزهراء بحال !!!

فقد كانت الزهراء عليها السلام صورة فريدة للكمال الإنساني ، في جانبه النسوي . . . جمعت كل معاني العظمة والفضيلة والشرف والكمال .

صورة تمتاز بالأصالة، ابدعتها يد البارىء القدير ، لتكون آية من آيات عظمته وجلاله ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

لقد كانت خير بنت لأبيها . . .

كما كانت خير زوجة لزوجها . . .

وخير أم لأولادها . . .

تكوّنت شخصيتها من خيوط نيّرة كان مجد محمد صلّى الله عليه وآله سُداها ، وعلياء خديجة لحمتها . . . وحَبَك شرف عليّ عليه السلام تلك الخيوط وأكسبها رونقاً وبهاء فجاءت زاهية عظيمة .

ومن مثل فاطمة في شرف مؤثل ، ومجد شامخ ، ونسب أصيل .

اجتمع في أبيها العظيم ، وأمها الزاكية ، و زوجها الطاهر ، وأبنائها الميامين ما لم يجتمع لبشر قبلها ولا بعدها .

ومن أجل ذلك كله ، كانت جديرة بأن تمثل القمّة في مستوى الكمال البشري في جانبه النسوي . . .

ومن أجل ذلك أيضاً ، سمّاها رسول الله صلّى الله عليه وآله بسيّدة نساء العالمين .

وإذا كانت سيّدة نساء العالمين ، كانت سيّدة نساء أهل الجنّة أيضاً .

وحسبها أن يكون الذي يمدحها رسول الله(ص) ، فماذا بعد ذلك ؟

القلم يجف !
واللسان يكلّ !
والعين تُبهر !
والرؤوس تخضع اجلالاً !
. . . والكل يشير إلى سيّدة النساء !!

ثمار من دوحة الرسالة

غصن رطيب ، وعودٌ أهيف تفتح عن خمسة براعم ، سرعان أن قضت الأحداث على برعم منها صغير ، لم تتفتح أكمامه بعد ، وبقيت البراعم الأربعة تمثل كلّ ما في دوحة الرسالة من فروع ، وتمدّها بالفيض الغزير من الماء والغذاء .

وقد اختار الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله لكل من هذه البراعم الخمسة اسماً ، فكانت الأسماء على التوالي : الحسن ، والحسين ، وزينب وأم كلثوم ، والمحسن .

١ ـ الحسن :

ما ان حلّت السنة الثالثة للهجرة حتى ابتسم فجر يوم الخامس عشر من شهر رمضان للمولود البكر في حياة الزهراء عليها السلام . . .

ذلك هو الحسن ، الذي استبشر به النبي صلّى الله عليه وآله خيراً وتناوله بيده الكريمة فأذّن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ، ثم قال لعليّ :

بأيّ شيء سمّيت ابني ؟

قال : ما كنت أسبقك باسمه يا رسول الله

فقال (ص): ولا أسبق أنا باسمه ربي .

عندئذ أوحى الله إلى جبرئيل أنه قد ولد لمحمد ابن فاهبط ، واقرأه السلام ، وهنّئه بولده ، وقل له : ان علياً منك بمنزلة هارون من موسى فسمّ هذا المولود باسم ابن هارون .

فنزل جبرئيل وهنّاه من الله تبارك وتعالى وأمر أن يسميه باسم ابن هارون .

فسأله رسول الله : وما اسم ابن هارون ؟

قال : (شبر) في السريانية ، و(حسن) في العربية فسمّاه حسناً .

* * *

استأثر الحسن عليه السلام بحب النبي صلّى الله عليه وآله ، وقد بذل له الرسول الأعظم من العناية والرعاية ما لا يقصر عن عناية أي أبٍ بأولاده الصلبيين .

ولعلّ في الصورة التالية ما يغني عن الإطالة .

« دُعي النبيّ إلى صلاة والحسن متعلق به ، فوضعه النبي (ص) مقابل جنبه وصلّى . فلما سجد أطال السجود ـ يقول الراوي ـ: فرفعت رأسي من بين القوم فإذا الحسن على كتف رسول الله صلّى الله عليه وآله فلما سلّم قال له القوم : يا رسول الله ، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها ، كأنّما يوحى إليك . فقال : لم يُوحَ إليّ ، ولكن ابني كان على كتفي ، فكرهت أن أعجله حتى نزل »[1] .

وقال (ص) فيه وفي أخيه : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة » .

كما قال فيهما : « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » .

---

(١) العلاّمة محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار ج١٠/٨٢.

وهكذا شبّ الحسن ، ونما في حجور طاهرة ، وتلقى من جدّه العظيم وأبيه الكبير من العلوم والآداب والتجارب ما أهّله للقيام بعبء الإمامة بعد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام .

كان يمتاز بهيبة عظيمة حتى قال عنه واصل بن عطاء : « كان للحسن ابن علي سيماء الأنبياء وبهاء الملوك . ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول الله (ص) مثل ما بلغ الحسن : كان يبسط له على باب داره فاذا خرج وجلس على البساط انقطع الطريق فما يمر أحد من خلق الله إجلالاً له فإذا قام ودخل بيته مرّ الناس واجتازوا . ولقد رأيته في طريق مكة ماشياً فما من خلق الله أحد رآه إلا نزل ومشى ، حتى رأيت سعد بن أبي وقاص يمشي » .

وما أن تصدّى لشؤون الخلافة حتى كان معاوية بن أبي سفيان المعارض الأول له . . . ذلك الرجل الذي تنفّس الصعداء لتوّه بعد أن نجح الخوارج في اغتيال الإمام أمير المؤمنين على يد (عبد الرحمن بن ملجم) ، وقد ظن أنه تخلّص ـ بوفاته ـ من الحواجز التي تعترض طريقه في تحقيق خططه وأساليبه اللاإسلامية .

فما أن وجد في الحسن عليه السلام استمرار النور المحمدي ، والإيمان العلوي ، والطهارة الفاطمية حتى أخذ يخطط لمعارضته .

لقد استمر في شنّ الحملات المسعورة ضد والده الذي بذل كل ما يملك في سبيل مرضاة الله ونشر دينه ، فكان أن نسب إليه ما لا يجرؤ القلم على التصريح به . ومن البديهي أن يكون هذا الأمر مما يثير سخط الإمام الحسن عليه السلام .

وعمد الحسن عليه السلام أول ما عمد إلى ردع معاوية عن اضطهاده للعلويين ، وحملة التهم والدعايات الباطلة التي يشنها ضد أبيه الإمام صارفاً على ذلك من بيت المال . . . وما كان من معاوية إلا التمادي في طغيانه والإستمرار في جرائمه ، مستهزئاً باستنكار الثمالة الباقية من

الصحابة المؤمنين وغير آبه بمعارضة المعارضين وإنكار المنكرين .

وهل يتوقع ممن حمل أبوه على الإسلام كرهاً أن يكنّ الخير للإسلام والمسلمين ؟!.

وهل يستبعد على مثل معاوية ـ وهو ذلك الذي لم يذق طعم الإيمان ـ أن يرتكب كل ما يخالف القرآن وسنّة رسول الله (ص) بدافع من حبّ الإمارة والزعامة ؟!.

* * *

ولما لم تُجدِ الأساليب السلمية مع معاوية في صرفه عن أهدافه المشؤومة . . .

ولما بدأ معاوية محاولاته التخريبية في شقّ عصا المسلمين ، وتشتيت شملهم والإغارة على بعض المدن والقرى الوادعة . . .

فكّر الحسن عليه السلام في إعلانها حرباً شعواء عليه ـ فطلب منادي الكوفة لينادي في المسلمين : (الصلاة جامعة)! فاجتمع الناس وخرج الحسن عليه السلام فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد ، فان الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كرهاً ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا ان الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون .

« انه بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه فتحرك ، لذلك اخرجوا ـ رحمكم الله ـ إلى معسكركم في النخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون » .

وخرج الحسن عليه السلام بنفسه ، وعبئت الجيوش ، ووزعت القيادات وسار الجيش بعدد قوامه اثنا عشر ألفاً نحو معاوية .

وقبل بدء القتال بليلة ،استطاع معاوية بماله من المكر والخداع ، من إغراء عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ـ وكان على رأس أربعة آلاف

من الجيش ـ بأن يسري إليه لقاء مبلغ مليوني دينار دفع إليه نصفها سلفاً وأجل النصف الآخر .

هذه الخيانة أحدثت ثلمة كبيرة في جيش الامام الحسن عليه السلام وتلتها خيانات أخر أوهنت الجيش وأضعفت النفوس . . . وبالرغم من إصرار الحسن على الحرب فان البقية الباقية سلت السيوف عليه مطالبة إياه بمصالحة معاوية .

وهكذا بايع الإمام الحسن عليه السلام معاوية على بنود معينة كان يرمي من ورائها الى تحقيق المصلحة العامة للمسلمين وحقن دمائهم . . .

ووضعت بنود المعاهدة على الصورة التالية[1] ووقع عليها الطرفان .

المادة الأولى :

تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنّة رسوله وبسيرة الخلفاء الصالحين .

المادة الثانية :

أن يكون الأمر للحسن من بعده ، فان حدث به حدث فلأخيه الحسين وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد .

المادة الثالثة :

أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة ، وأن لا يذكر علياً إلا بخير .

المادة الرابعة :

استثناء ما في بيت مال الكوفة ، وهو خمسة ملايين فلا يشمله تسليم الأمر . وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسن كل عام مليوني درهم ، وأن

---

(١) الشيخ راضي آل ياسين: صلح الحسن، ص٢٥٢، الطبعة الأولى .

يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس . وان يفرق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل ، وأولاد من قتل معه بصفين مليوني درهم ، وأن يجعل ذلك من خراج دارا بجرد.

المادة الخامسة :

إن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله ، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ؛ وأن يؤمن الأسود والأحمر ، وأن يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم وأن لا يتبع أحداً بما مضى ، وان لا يأخذ أهل العراق بأخيه .

وأمان أصحاب علي حيث كانوا ، وأن لا ينال أحداً من شيعة علي بمكروه ، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم وان لا يتعقب عليهم شيئاً ، ولا يتعرض لأحد منهم بسوء ، ويوصل إلى كل ذي حق حقه وعلى ما أصاب أصحاب علي حيث كانوا .

وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ، ولا لأخيه الحسين ، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله ، غائلة سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق .

* * * *

وانتهت الحرب بتوقيع هذه المعاهدة ، ورجع كل الى مقره .

هذه البنود كانت كافية في أن تحدد معاوية وتمنعه من الاستمرار في طغيانه ، والتمادي في غيه . ولو كان وفى ببعضها ـ لا جميعها ـ لكان الربح بجانب الحسن عليه السلام ، والخسارة بجانبه . وهذا هو الذي دفعه إلى أن ينقض العهود ويعلن على رؤوس الأشهاد :

(أعطيت الحسن بن علي عهوداً ومواثيق ، وها هي كلها تحت قدمي) .

* * *

ظلّ الإمام الحسن عليه السلام يقاسي بعد ذلك الأمرّين من سلوك معاوية الذي كان ينسج المؤامرات ضده في كل فرصة ومناسبة . . . وانتهت هذه المحاولات بإناء من السم بعث به الى زوجة الإمام الحسن (جعدة بنت محمد الأشعث) وأغراها بكثير من المال ، وضمن لها أن يزوجها (يزيداً) إبنه .

فسقت الحسن السم ، فسرى ذلك في أحشائه وفتت كبده حتى أخذ يقيء قطعاً من كبده .

ودخل عليه أخوه الحسين عليه السلام ، فقال له : كيف أنت يا أخي ؟

قال : كيف يكون من قلب كبده في الطست .

فقال : من فعل بك ، لأنتقم ؟

قال : لا عليك ، غداً أخاصمه عند الله .

* * *

٢ ـ الحسين :

واستقبلت المدينة المنوّرة في العام الرابع للهجرة، وفي اليوم الثالث من شعبان الوليد الجديد للزهراء عليها السلام ، وسمّاه النبي صلّى الله عليه وآله (حسيناً) .

وقد هنّأ الله نبيّه بحمل الحسين وولادته ، كما عزاه بقتله ومصابه . . .

علقت الزهراء به بعد أخيه الحسن ، وظلت تبذل له من الحنان والرأفة ، علها تجبر بذلك قسوة المصير المؤلم الذي سيلاقيه .

وكان النبي صلّى الله عليه وآله يحبّه حبّاً جمّاً . . .

كان يقول فيه : « انه سيّد شباب أهل الجنّة » .

وقال أيضاً : « حسين مني وأنا من حسين » .

وكما قال في الزهراء أنها بضعته ، قال عن الحسين : « حسين بضعة منّي » .

وبهذا الصدد تقول أم الفضل بنت الحرث ـ مرضعة الحسين : دخلت على رسول الله (ص) فقلت : يا رسول الله رأيت حلماً منكراً الليلة !

قال (ص): وما هو؟

قلت : رأيت قطعة من جسدك انقطعت ووضعت في حجري .

فقال (ص): خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً يكون في حجرك .

* * *

لقد كان رسول الله (ص) يبذل لولديه الحسن والحسين الكثير من العطف والاحترام أمام الملأ العام من المسلمين لاشعارهم بما لهما من المنزلة عند الله . فقد روي أنه كان جالساً ذات مرّة ، وأقبل الحسن والحسين ، فلما رآهما النبي قام لهما ، واستبطأ بلوغهما إليه ، فاستقبلهما وحملهما على كتفيه وقال : « نعم المطي مطيكما ، ونعم الراكبان أنتما »[1] .

وهكذا يصوّر لنا الرواة مدى عطف النبي (ص) تجاه الحسين مما يجعلنا ندرك جسامة الوزر الذي تحملته الأمة في موقفها تجاهه بعد أن آل الأمر إليه .

تقول أم الفضل ـ مرضعة الحسين ـ:

« أخذ منّي رسول الله صلّى الله عليه وآله حسيناً أيام رضاعه فحمله فأراق ماء على ثوبه ، فأخذته بعنف حتى بكى ، فقال (ص): مهلاً يا أم الفضل ، إن هذه الاراقة الماء يطهرها ، فأي شيء يزيل هذا الغبار عن

---

(١) العلاّمة محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج١٠/٨٠.

قلب الحسين ؟ »[1] .

* * *

درج الحسين عليه السلام في ذلك البيت الطاهر على الإيمان والأخلاق الفاضلة ، ورضع لبان التوحيد والإخلاص من أمه الزهراء عليها السلام .

شهد الأحداث المؤلمة التي كادت تقضي على الإسلام ، وعاشها بوعي وتأمل .

فقد شهد في التاسعة من عمره وفاة جدّه العظيم ، وما جرى بعد ذلك من نزاع على الخلافة ، وإبعاد قطب الرحى عنها حيث أخذت تدور على غير هدى .

وشهد بعد ذلك وفاة أمه الزهراء عليها السلام ، ودفنها سراً ليلاً .

ثم شهد الردة التي تمثلت في قيام (معاوية) وغيره في وجه أبيه الإمام ، والتي أدّت إلى حرب الجمل ، وصفين ، والنهروان . . . والتي انتهت باغتيال أمير المؤمنين عليه السلام .

وكانت الحادثة القريبة إلى خاطره ، تآمر معاوية على حياة أخيه الحسن وما هي إلا فترة وجيزة حتى قضى معاوية نحبه مستخلفاً على الأمة ابنه الخليع (يزيد) ، الذي كان يلعب بالكلاب والقرود ، ويشرب الخمر ويجلب القيان للغناء ، والذي بلغ من التسافل حداً جعله يستسيغ وقوف الأخطل ـ الشاعر الأموي ـ أمامه قائلاً :

ودينك حقاً كدين الحمار . بل . أنت أكفر من هرمز !

* * *

لقد كان معاوية ممهداً الطريق لابنه ، آخذاً بالبيعة له من كبار القادة

(١) الشيخ عباس القمي : هدية الأحباب ص١٧٦ .

والأمراء ، فحاول هذا منذ تنزّيه على مقام الخلافة أن يخضع الحسين (ع) أيضاً لأمره فيكسب التأييد الكامل في الحجاز أيضاً .

وهيهات على الحسين (ع) أن يعترف ليزيد بحق فى الخلافة ، وقد غصبها أبوه من أهلها ، وصيّرها الى من لا عهد له بإيمان أو اخلاص ، وكأنّها ملك خاص له يورّثه من يشاء .

وإذا كان الحسن يرى من المصلحة العامة أن يصالح معاوية ، فذلك ما لا يمكن أن يرضخ له الحسين ، فان تجربة نقض العهود التي صدرت من (الأب) أقوى احتمالاً وأقرب وقوعاً في (الابن) .

ولم يفت على الحسين عليه السلام هذا الأمر حين قال : «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ لكم إقرار العبيد» .

ومذ تحقق ليزيد استحالة أخذ البيعة من الحسين سلمياً ، لجأ إلى التهديد بقتله ، فأوعز إلى وُلاته بالقبض عليه حتى لو وجدوه متعلقاً بأستار الكعبة !

وإزاء هذا الموقف فقد قرر الحسين عليه السلام الخروج الى العراق حيث أنصار أبيه في الكوفة ، وقد بعثوا إليه بتأييدهم المطلق له ، وعدم خضوعهم لحكم يزيد ، وأنهم لا يرضون عنه بغيره بديلاً .

بعث الحسين سفيره إليهم ، ثم توجّه بأهله وعياله وجمع من بني هاشم إلى الكوفة . . . وكان سفيره إلى الكوفة ابن عمّه (مسلم بن عقيل) وما أن بلغها مسلم حتى رحبت به الجماهير الناقمة على معاوية وابنه ، وبذلت له البيعة والطاعة ، وكاد الأمر يتم للحسين .

وما كان من يزيد إلا أن يتخذ التدابير الحاسمة تجاه ما يهدد كرسيه فبعث بالأوامر المشددة إلى واليه على الكوفة (عبيد الله بن زياد) ، وعززه بجيش قوي بلغ عدده السبعين ألفاً .

واستطاع والي يزيد من السيطرة على الأمور ، ومعاقبة كل من ساند

مسلماً في أخذ البيعة للحسين ، وقبض على مسلم وضرب عنقه وألقى بجسده من على سطح قصر الإمارة .

ولم تصل أنباء الانتكاسة إلى الحسين عليه السلام ، إلا وقد قطع الشوط الأكبر من الطريق ، فواصل السير نحو الكوفة ، بينما صدته قوات من جيش يزيد وأجبرته على النزول في (كربلاء) .

* * *

وعلى أرض الطف التقى الفريقان :

فريق يمثل الإيمان والصدق والاستقامة ، والإباء عن الضيم ، والتمسك بالثقلين اللذين خلفهما النبي (ص) فيهم . . . وهؤلاء لا يتجاوزون الإثنين وسبعين رجلاً .

وفريق آخر يمثل النفاق والانحراف والمكر ، والطمع في المادة ، والسعي لثارات قتلى بدر وحنين . . . وهؤلاء يبلغ عددهم سبعين ألفاً ، ودارت المعركة في اليوم العاشر من محرم عام ٦١ للهجرة . . . وانتهت المأساة بقتل الحسين عليه السلام وأصحابه البررة ، ثم قطع رؤوسهم وحملها على الرماح ، ونقلها الى الشام حيث (يزيد) . هذا بالإضافة الى سبي بنات الرسالة وحملهن أسيرات إلى (الخليفة الأموي) !

وإنّها لمن الوقاحة أن يُقتل ابن رسول الله تحقيقاً لنزوة من يدّعي أنه خليفة رسول الله ؟

وإنّه لمن العقوق أن تسبى بنات رسول الله مع ذلك الوضع المزري ويُحملن أسيرات الى ابن هند !

وإنّه لكفر ما بعده كفر ، وإلحاد ما بعده إلحاد ، وردّة ما بعدها ردّة . . . أن تُساق بنات الوحي إلى مجلس (يزيد) وقد وضع رأس أبي عبد الله الحسين عليه السلام في طست من الذهب وبيده خيزرانة يضرب بها ثنايا ابن الرسول ويقول :

لعبت هـاشم بـالملك فـلا خبـر جـاء ولا وحي نـزل
لست من (خندف) ان لم أنتقم من بني (أحمد) ما كان فعل!

فيقوم أحدهم ويقول : مهلاً يا يزيد ، فلطالما رأيت رسول الله (ص) يضع فمه الطاهر على هذا الفم الذي تتناوله بالخيزران ويقبّله . . . فيكون ردّ الفعل إيغالاً في الوحشية والبربرية .

ومن يزيد ؟

أليس ابن هند التي انقضّت على الشهيد (حمزة) عمّ النبي ، وأخرجت كبده ، ثم أخذت تمضغه مضغاً ؟!

* * *

وتمرّ الأعوام والقرون والحسين خالد خلود الحق والطهر والإباء ، ويزيد تطمره زوايا النسيان تارة ، واللعن والذكر السيء تارات !!! .

تمر القرون . . . ولا زالت الألوف من الحناجر ـ بل الملايين ـ تضج حول مرقد الحسين الطاهر وهي تهتف :

« أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة ، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها » .

* * *

٣ . زينب :

في العام السادس للهجرة ، حيث شهدت المدينة المنورة استقرار الدعوة الإسلامية وتركز دعائمها . . . انفلق البرعم الثالث من براعم الزهراء عليها السلام عن وليدة جديدة ، سمّاها الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله (زينب) إحياء لذكرى ابنته الراحلة (زينب) التي ماتت في طريقها إلى دار الهجرة عندما نخسها أحد المشركين في بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها ، وذلك بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها (أبي العاص بن الربيع) .

وأقبل المهنئون من بني هاشم والصحابة يباركون هذه الزهرة المتفتحة في بيت الرسول ، تنشر في المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح في طلعتها المشرقة ووجهها الصبيح ، ملامح آباء وأجداد لها كرام .

« ونرمق زينب وهي تدرج في ساحة البيت الشريف ، محوطة برعاية خاصة من جدها العظيم ، وعطف سابغ من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة في حضانة (الزهراء) تتلقى عنها الدروس الأولى في الحياة ، فاذا جاوزت دور الحضانة ألفت أمامها أعظم من أنجبتهم الجزيرة في زمانها من المعلمين ، جدها صاحب الرسالة ، وأباها الفارس أمير البيان ، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام .

ولم تظفر صبية من لداتها ـ فيما نحسب ـ بمثل ما ظفرت به هي في تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضي (زينب) في صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة مزهوة ، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال أنها عرفت النبوءة الأليمة : قيل انها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ثم استطرد ـ متأثراً بذكائها اللامع ـ يلمح إلى ما ينتظرها في مستقبل أيامها من دور ذي خطر . ولشد ما كانت دهشته حين قالت له زينب في جدّ رصين :

ـ أعرف ذلك يا أبي . . . لقد أخبرتني به أمي ، كيما تهيئني لغدي .

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً »[1] .

* * *

وما أن بلغت (زينب) مبلغ الزواج حتى اختار لها أبوها بين المتقدمين لخطبتها من بني هاشم وقريش ، ابن أخيه (عبد الله بن جعفر

---

(١) بنت الشاطىء : بطلة كربلاء ص٣٢، دار الأندلس، بيروت .

بن أبي طالب) الذي ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها فكان أول من ولد بها من المسلمين .

لقد كان سيّداً شهماً ، كريم النفس ، سخيّ اليد ، أسرف على نفسه في الجود ، حتى كان لا يبالي أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه .

* * *

وأثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت له زينب أربعة بنين : عليّاً ، ومحمداً ، وعوناً ، والعباس ، كما ولدت له بنتين ، ولقد كان أولادها الأربعة معها عندما سارت في ركب أُخيها الحسين إلى كربلاء ، وقد أخذ الضعف والعجز من أبيهم مأخذه فبقي في المدينة . . . وهكذا استشهدوا بين يدي خالهم العظيم على أرض الطف .

إن من يتصفّح حياة عقيلة بني هاشم (زينب) لا يستكثر علينا القول بأن النهضة التي نهضها الحسين عليه السلام بوجه الكفر والارتداد عن دين الله كانت بتراء لو لم تبدأ (زينب) مهمتها من بعد معركة الطف ، آخذة بزمام الأمر في كل المراحل .

وعلى عاتقها فقط ، كُتب الخلود لنهضة الحسين ، فكانت حلقة الوصل بين (الطف) و(الأجيال اللاحقة) .

ولعلّ السر في ذلك أن (يزيد) كان قد عمّى على أغلب الناس بأن الجيش الذي بعثه إنما هو لمحاربة بعض الخوارج في العراق ، وأن الرؤوس التي حُملت إليه إنما هي رؤوس الخارجين عن ربقة الطاعة ، والشاقين عصا المسلمين .

ولكن (زينب) أوضحت للجمهور في (الكوفة) و(الشام) وفي الطريق . . . أنها والنساء التي معها بنات رسول الله (ص) ، وألصقت الخزي والعار بيزيد ومناصريه في ارتكابه الجريمة الشنعاء .

لقد خطبت في الكوفة خطبة بليغة ، وخطبت في الشام في (مجلس

يزيد) خطبة أخرى عظيمة كان لها أبلغ الأثر في إيقاظ الجماهير وتوجيه أنظارهم الى الحقيقة التي حاول يزيد عبثاً إخفاءها وإسدال الستار عليها .

وكانت هي المسؤولة الوحيدة عن عيال الحسين والأنصار ، حتى أوصلتهم إلى المدينة المنوّرة . . .

استقبلت مدينة الرسول هذا الركب الحزين ، وليس معه رجل إلا (عليّ بن الحسين السجاد) الذي كتب له البقاء لتستمر الامامة بوجوده وتنتقل في صلبه .

لقد ودعت المدينة هذا الركب بقيادة الحسين عليه السلام ومعه بنو هاشم . . . وها هم يرجعون وقد تركوا الشهداء جثثاً بلا رؤوس على أرض الطف يخطون أروع سطور الشرف والإباء والتضحية في سبيل الدين الحنيف .

* * *

٤ ـ أم كلثوم :

ولدت الزهراء عليها السلام بعد (زينب) بنتاً أخرى سمّاها الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله (أم كلثوم) ، ولا يذكر المؤرخون غير نتفٍ يسيرة من حياتها .

تزوجها (عمر بن الخطاب) فولدت له ولداً سمّاه زيداً .

وقد ماتت هي وولدها في يوم واحد لسبب يختلف فيه الرواة ، والظاهر أن الجدار سقط عليهما .

وعلى هذا المقدار تقتصر الصورة التي يعطيها المؤرخون عن (أم كلثوم) بنت الزهراء عليها السلام .

* * *

٥ ـ المحسن :

قلنا : ان البرعم الخامس من براعم الزهراء لم يقدّر له أن يعيش ، فقد أسقط فـي الأحداث التي جرت على الزهراء عليها السلام بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله عندما دخلوا بيتها عنوة وأضرموا النار على باب الدار ، وقد لاذت خلف الباب لتحفظ نفسها عن النظر إليها ، فكانت عصرة من أحدهم ، أسقط الجنين على أثرها .

وكان الجنين قد سمّي (محسناً) قبل أن يولد .

* * *

هذه صورة مصغّرة عن ثمار دوحة الرسالة . مثّلت أولاد رسول الله صلّى الله عليه وآله من صلب عليّ وفاطمة ، الذين ظلّوا الأنوار الساطعة التي تحكي نوره عبر الأجيال !!!

المصلح الحقيقي للعالم (المهدي)

من ولد فاطمة

مصادر حديث (المهدي من ولد فاطمة)

عن رسول الله (ص)

- الحافظ البخاري في (التاريخ الكبير) ج٢ قسم ١ ص٣١٦، طبعة حيدر آباد .
- الحافظ أبو داود السجستاني في (السنن) ج٤/١٥١، مطبعة السعادة بمصر.
- العلاّمة أبو علي القشيري في (تاريخ الرقة) ص٧٠، طبعة القاهرة .
- الحاكم النيسابوري في (المستدرك على الصحيحين) ج٤/٥٥٧، طبعة حيدر آباد .
- ابن الصباغ المالكي في (الفصول المهمة) ص٢٧٦، مطبعة الغري .
- الخطيب التبريزي في (مشكاة المصابيح) ج٣/٢٤، طبعة دمشق .
- الحافظ الذهبي في (ميزان الاعتدال) ج١/٣٥٥، طبعة القاهرة .
- الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ) ج١/٤٦٣، طبعة حيدر آباد .
- السخاوي في (المقاصد الحسنة) ص٤٣٥ مكتبة الخانجي بمصر.
- الحافظ جلال الدين السيوطي في (الجامع الصغير) ج٢/٥٧٩ طبعة مصر.

- العلامة المناوي في (كنوز الحقائق) ص١٦٤ طبعة بولاق مصر.

- أحمد بن حجر الهيثمي في (الصواعق المحرقة) ص٢٣٥ طبعة عبد اللطيف بمصر.

- ابن الصبّان المالكي في (إسعاف الراغبين) بهامش (نور الأبصار) ص١٤٧.

- الشيخ علي بن برهان الحلبي في (السيرة الحلبية) ج١/١٩٣ طبعة مصر.

- القندوزي في (ينابيع المودة) ص٤٣٠، الباب الثاني والسبعون وص١٧٩، الباب السادس والخمسون.

٥- التربيـة الفـاطميّة

ولو سمّيناها (التربية المحمدية) لما عدونا الواقع . . .

الحق أن مسألة التربية من أخطر المسائل الإنسانية ، لأن مصيرها يتوقف على هذه المسألة الحية ، لأن الوراثة ليست العامل الحاسم في سلوك الإنسان إلا في موارد قليلة . . . ذلك أن التربية تستطيع بما لها من قوة أن توجه القابليات والمواهب الموروثة نحو الطريق الذي تريد من خير أو شر ، وهدى أو ضلال .

ان الفرد لا يستغني عن التربية في أيّة مرحلة من مراحل حياته ، فالطفل يحتاج إلى تربية تضع رجله على طريق الخير والصلاح .

والشاب يحتاج إلى تربية توجّه طاقاته وإمكاناته نحو الانتاج الفعّال ـ فنيّاً أو علمياً ـ وترشده إلى الموازنة بين عواطفه وميوله وأهوائه حسب مقاييس صحيحة .

والشيخ يحتاج إلى تربية تجعل منه إنساناً يستفيد من تجاربه ويكوّن منها (إيديولوجية) يتبنّاها ويدافع عنها ، ويدفع الآخرين لالتزامها .

وتزداد التربية أهمية بالنسبة إلى الأفراد الذين يملكون قابليات وراثية عظيمة ، فان تآزر هذين العاملين وتعاونهما في مجال واحد يجعل من الفرد

عبقرياً . . . شأنه في ذلك شأن البذرة الصالحة ، فانها إذا لاقت تربة جيدة وسُقيت بانتظام أخرجت نبتة سرعان ما تنمو وتصبح شجرة باسقة تظلّ بأغصانها ، وتمدّ الناس بثمارها .

* * *

وبلغ من اهتمام الزهراء سلام الله عليها بتربية أولادها ـ بمعونة زوجها الإمام ـ أن بذلت كل وسعها لترسيخ الأسس الوراثية التي اكتسبوها من الأصلاب الشامخة التي انحدروا عنها ، ودعمها بما يضمن نبوغهم وعبقريتهم فنجحت في ذلك نجاحاً تاماً .

ويتضح ذلك جلياً من خلال الفقرات التالية :

١ ـ احترام شخصية الطفل :

كانت الزهراء سلام الله عليها تعنى كثيراً باحترام شخصية أطفالها ، وتعاملهم معاملة الرجال في التخاطب معهم .

ان هذه المعاملة تقوي معنوية الطفل ، وتفهمه أنه أيضاً يتمتع بمكانة ممتازة في الأسرة والمجتمع ، ولذلك فانه ينشأ على الطموح والاستقلال والثبات بعكس الامهات اللائي يحتقرن أطفالهن ، فانهن يقتلن بعملهن هذا جذور الشخصية والإستقلال ، ويكبتن فيهم دوافع النمو العقلي المطرد .

وكان لهذا الإحترام أثره الفعال في أبناء الرسول (ص) ، مما جعلهم يشعرون بمنزلتهم ويطلعون على أبعاد شخصيتهم .

يقول أبو رافع ـ مولى النبي ـ :

« كنت ألاعب الحسن بن علي عليهما السلام ـ وهو صبي ـ بالمداحي . فإذا أصابت مدحاتي مدحاته قلت : احملني . فيقول : ويحك ! أتركب ظهراً حمله رسول الله (ص) ؟ فأتركه . فإذا أصابت مدحاته مدحاتي قلت : لا أحملك كما لا تحملني . فيقول : أوما ترضى أن تحمل

بدناً حمله رسول الله (ص)؟ فأحمله »[1] .

هذه التربية القيّمة هي التي جعلت الإمام الحسين عليه السلام يأبى الخضوع لمعسكر الفسق والفجور والظلم ، المتمثل في يزيد بن معاوية وأتباعه وينهض مع النفر القليل لمحاربة الكفر والإلحاد والانحراف .

ولقد صرّح بذلك حين قال : « ألا وإن الدعيّ ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين : الذلّة أو السلة ، وهيهات منا الذلّة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون ، وانوفٌ طابت ، وحجور طهرت » .

٢ - التربية على أساس الإيمان :

تكون التربية التي لا تستند إلى أساس الإيمان بالله فاقدة للجدوى ، لأنها تقود الطفل إلى الإنكار والجحود ، وهذا ما يُسدل أمام عينيه ستاراً مظلماً حالكاً تصعب إزالته فيما بعد .

أما الزهراء فان بيتها المتواضع كان مناراً للإيمان ومشكاة للهداية . . . رضعت أولادها من لبان ذلك الإيمان الخالص ، وغذّتهم بتلك القيم الروحية العالية ، فأصبحوا - والحق - جديرين بأن يكونوا الامتداد الخلاق لرسالة جدّهم العظيم .

وشتّان بين تربية أساسها الإيمان ، درج عليها الحسن عليه السلام ، وتربية أساسها النفاق والجشع نشأ عليها معاوية !

وبون شاسع بين تربية أساسها الطهارة تلقاها الحسين عليه السلام ، وتربية أساسها الدنس والرجس تطبّع عليها يزيد .

٣ - الإستقامة :

وكما نشأت الزهراء عليها السلام على الاستقامة في السلوك ، فانها حرصت على تنشئة أولادها على الإستقامة أيضاً .

---

(١) الميرزا حسين النوري: مستدرك الوسائل ج٢/ ٧١٧ .

لقد عودتهم على الصراحة والصدق والوفاء بالوعد ، وانعكس ذلك على سلوكهم في المجتمع عندما شبّوا وأصبحوا أعضاء بارزين يُشار إليهم بالبنان . . . خصوصاً بعدما احتل الحسنان منصب الإمامة والقيادة .

وبالرغم من أن الفضل في شطر من ذلك يرجع إلى دقّة الأسلوب الذي تبنّاه الإمام عليه السلام ، فان الزهراء كانت تشارك عملياً في تطبيق ذلك الأسلوب ، كما أنها كانت تمثل بحدّ ذاتها الأم الحريصة على سلامة تربية أولادها .

وجدير بكل أمٍّ أن تقتدي بالزهراء عليها السلام ، تستلهم منها الاستقامة والصراحة والصدق ، فتحول ذلك إلى قدوةٍ يقتدي بها الأطفال ويلتزمونها ، حتى إذا ما ترعرعوا وتقدموا في السن كانوا أعضاء نافعين وواعين في المجتمع .

والآن تحضرني صورة بريئة جداً للطفلة التي تعوّدت الإستقامة من أمها في حوار مع أبيها . . .

تلك هي زينب ابنة الزهراء . أجلسها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع أخيها العباس يوماً ، وقال للعباس :

ـ قل : واحد !

فقال : واحد .

فقال : قل: اثنان !

قال : أستحي أن أقول باللسان الذي قلت ، واحد : اثنان !

فقبّل عليّ عليه السلام عينيه ، ثم التفت إلى زينب ، فقالت :

ـ يا أبتاه ، أتحبّنا ؟

قال : نعم يا بنيّتي ، أولادنا أكبادنا !

فقالت : يا أبتاه ، حبان لا يجتمعان في قلب المؤمن : حبّ الله ، وحبّ الأولاد . وإن كان لا بدّ فالشفقة لنا والحب لله خالصاً »[1] .

---

(١) الميرزا حسين النوري: مستدرك الوسائل، ج٢/٦٣٥.

انّه حوار قصير جداً ، ولكنه يكشف عن وعي كبير في الطفلة البريئة . انها تريد أن تقول لأبيها : لقد تلقيت منك ومن أمي درساً هو أن الحب لا يكون إلا لله تعالى ، وأن المؤمن لا يعمر قلبه إلا بحبّ ربّه ، ولذلك فان الحب يكون لله ، وللأولاد الشفقة .

٤ ـ الإعتماد على النفس :

الاعتماد على النفس من الشروط الأساسية للتكامل الفردي والاجتماعي . على كل فرد أن يستند إلى علمه واخلاقه ، وجدّه وجهده ، ويسعى في طريق ضمان سعادته نظرياً وتطبيقياً ، وأن يكون على حذر تام من الاعتماد على الآخرين .

إن المرء مرهون بعمله ، وهو الذي يتحمل تبعة ما صدر منه من خير أو شر ، وان الجزاء الذي يناله أو يصيبه إنما هو النتيجة الطبيعية لما اكتسبت يداه . ومن هنا أكّد الإسلام في أكثر من مجال على مسؤولية الفرد عن أعماله ، وتوقف نجاحه على ما يبذل من جهود لتحقيق هدفه .

قال تعالى : ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾[١] .

وقال أيضاً : ﴿وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأنَّ سعيه سوف يُرى﴾[٢] .

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « الشرف بالهمم العالية ، لا بالرمم البالية »[٣] .

وقال عليه السلام : « قدر الرجل على قدر همّته »[٤] .

ويقول الإمام السجّاد عليه السلام : «رأيت الخير كلّه قد اجتمع في

(١) سورة المدثر /٣٨.
(٢) سورة النجم/٣٩.
(٣) الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم ص٨٧.
(٤) محمد عبده : شرح نهج البلاغة ج٣.

قطع الطمع عما في أيدي الناس » .

وعلى الوالدين بالدرجة الأولى أن يلقنا الطفل درس الاعتماد على النفس منذ الصغر ، حتى ينشأ مستنداً إلى عمله لا مفتخراً بأمجاد آبائه .

وهذا ما نلمسه بوضوح في سلوك الحسنين عليهما السلام ، فقد حازا تلك المنزلة العظيمة بالاعتماد على نفسيهما دون التفاخر بالأب والجد . والفضل في ذلك يعود إلى التربية السليمة التي تلقياها من أبيهما العظيم ، وأمهما الصدّيقة الطاهرة .

* * *

وهكذا يبقى أولاد الزهراء عليها السلام نماذج فذّة تحكي عظمة التربية الفاطمية ، واستنادها الى أقوم الأسس والأساليب، وأدقّ التعاليم الإسلامية التي تلقتها الزهراء في بيت الوحي والرسالة .

المعلّمة الأولى :

وإن شئت أن تطّلع على آثار التربية الفاطمية على صعيد الأمة المسلمة آنذاك فاستمع إلى علم من أعلام الأمة الإسلامية يقول :

« ما وَصَلنا عن أخبار فاطمة يصوّرها لنا بصورة المعلمة الأولى للمسلمات اللواتي كنّ يقبلن على بيتها مستفهمات متعلمات فتفيض عليهن فاطمة بما وعته من علم وتثقفهن بثقافة العصر وتشجعهن على طلب العلم والمعرفة .

وهكذا كان بيتها المدرسة الأولى في الإسلام للمرأة .

ورغماً عن فقدان التدوين في عصرها ممّا حرمنا من أكثر أخبارها فلم يصلنا منها إلا القليل ، ورغماً عن قصر حياتها إذ أنها ماتت في عنفوان الشباب ، رغماً عن كلّ ذلك فان ما بين أيدينا من المصادر التاريخية يمكن أن يعطينا ملامح عن انصرافها لتثقيف الجماهير الإسلامية أفراداً وجماعات . فما ورد في خطبتها من دعوة إلى مقاومة الظلم والاستبداد

وحضّ على التمسّك بما نسمّيه في عصرنا الحاضر بالدستور والقوانين ، وما أورده المؤرخون من أخبارها مما سنراه هنا من رحابة صدرها في تثقيفها للراغبين ، وإقبال النساء عليها طالباتٍ للعلم ، كل هذا يرينا بعض حقائق فاطمة العالمة المعلّمة .

ولم يقتصر تثقيفها على النساء ، بل كان الرجال يقصدونها كذلك مستفيدين. ومن أمثلة ذلك أنَّ ابن مسعود جاءها يوماً فقال : يا ابنة رسول الله ، هل ترك رسول الله عندك شيئاً نتعلّمه ؟

فقالت فاطمة : يا جارية ، هاتي تلك الأوراق ، فطلبتها فلم تجدها . فقالت فاطمة . ويحك اطلبيها فانها تعدل عندي حسناً وحسيناً . . . إلى آخر الخبر .

ومن ذلك أن امرأة جاءت تسأل فاطمة مسائل علمية فأجابتها فاطمة عن سؤالها الأول ، وظلت المرأة تسألها حتى بلغت أسئلتها العشرة . ثم خجلت من الكثرة، فقالت : لا أشقّ عليك يا ابنة رسول الله ، فقالت فاطمة : هاتي وسلي عما بدا لك . إني سمعت أبي يقول : إن علماء أمتنا يحشرون فيخلع عليهم من الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله »[1] .

(فضّة) تلميذة فاطمة وخادمتها !!

لم يكن إسهام (فضّة) في خدمة البيت ، ومساعدتها للزهراء مقتصراً على العمل اليومي في المنزل ، بل كانت التربية الفاطمية تنعكس على هذه التلميذة الملازمة لمعلّمتها فتصنع منها رمزاً للمرأة المثقّفة المؤمنة التي تجعل القرآن ، كتاب الله الخالد ، نصب عينها في شتّى شؤون الحياة .

والقصّة التالية تشرح لك طرفاً من حياة فضّة ، التلميذة !!

---

(١) السيد محسن الأمين : المجالس السنية ج٢/ ١٣٠، دار التعارف بيروت ١٣٩٤ هـ .

انقطعت في البادية عن القافلة ، فوجدت امرأة . فقلت لها : من أنت؟

فقالت : ﴿وقُلْ سَلامٌ فَسَوفَ تَعْلَمُون﴾فسلّمت عليها وقلت : ما تصنعين هاهنا ؟

قالت : ﴿مَنْ يَهْدِ اللّـهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ﴾.

فقلت : أمن الجن أنت أم من الإنس؟

قالت: ﴿يا بَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكم﴾

فقلت : من أين أقبلتِ ؟

قالت : ﴿تُنادون من مَكانٍ بَعيدٍ﴾.

فقلت : أين تقصدين ؟

قالت : ﴿ولِلّـهِ على النَّاسِ حجّ البيتِ﴾ .

فقلت : متى انقطعت ؟

قالت : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ في ستّة أيّام﴾ .

فقلت : أتشتهين طعاماً ؟

فقالت : ﴿وما جَعَلْناهُم جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعام﴾ .

فأطعمتها ، ثم قلت : هرولي وتعجّلي .

فقالت : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللّـهُ نفساً إلاّ وُسْعَها﴾.

فقلت : أردفِك؟

فقالت : ﴿لو كَانَ فِيهما آلِهَةٌ إلاّ اللّـهُ لَفَسَدَتَا﴾.

فنزلت فأركبتها فقالت : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّر لنا هذا﴾.

فلما أدركنا القافلة قلت لها : ألك أحد فيها ؟

قالت : ﴿يا دَاوُدُ إنّا جَعَلناكَ خَليفَةً في الأرض﴾ ﴿وما مُحمّد إلا رَسولٌ﴾ ﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ﴾ ﴿يا مُوسَىٰ إني أنا اللّـهُ﴾ .

فصحت بهذه الأسماء ، فإذا بأربعة شباب متوجّهين نحوها ، فقلت : من هؤلاء منك ؟ قالت : ﴿المالُ والبنُون زِينةُ الحياة الدُّنيا﴾ .

فلما أتوها قالت : ﴿يَا أَبَتِ استأجِرْه إنّ خَير من استأجرتَ القويّ الأمين﴾ .

فكافوني بأشياء ، فقالت : ﴿واللّهُ يُضاعفُ لِمَنْ يَشاء﴾ فزادوا لي .

فسألتهم عنها ، فقالوا : هذه أمّنا فضّة جارية الزهراء ، ما تكلّمت منذ عشرين سنة إلا بالقرآن !!![1] .

(١) ابن شهرآشوب : مناقب آل أبي طالب ج٣/٣٤٣، المطبعة العلمية ، قم .

بشائر

١- ويطعمون الطعام
٢- أجر الرسالة
٣- المباهلة
٤- آية التطهير
٥- بلاغتها
٦- عصمتها



ويُطعِمُونَ الطَعَامَ

كثيرون هم الكرماء . . .

وكثيرون أولئك الذين ينفقون في سبيل مرضاة الله . . .

وكثيرون هم الذين يطعمون الطعام للفقراء والمساكين . . .

ولكن ليس في ذلك كبير فضل ، ما داموا يملكون فضلاً في المال ، وزيادة في الطعام . . . إنما الكرم كل الكرم ، يظهر في صورة حاجة الفرد إلى الطعام وإيثار غيره على نفسه ، واحتياجه الى المال وتقديم المعسر على شخصه .

هذه الصورة نجدها في بيت الزهراء . . . ناصعة السمات ، واضحة الملامح .

* * *

تمرض الحسنان ذات يوم ، وجاء النبي صلّى الله عليه وآله لعيادتهما . فتأثر كثيراً مما رآهما فيه من الضعف والمرض وقال لعلي عليه السلام : لو نذرت لشفاء ولديك نذراً !

فنذر الإمام عليه السلام لله أن يصوم ثلاثة أيام إن شفي ولداه وشاركت الزهراء عليها السلام في النذر ، كما تبعتهم (فضّة).

برىء الحسنان من مرضهما ، وحان موعد وفاء النذر . . .

لم تكن في زوايا البيت المتواضع مخازن للطعام ، كما هو الشأن في بيوت الطبقة الارستقـراطية ، فانطلق الإمام عليه السلام إلى جار له يعالج الصوف ، واتفق معه على أن تغزل له الزهراء جزة من صوف لقاء ثلاثة أصوع من الشعير .

وأخذ الصوف ومعه الشعير فأتى بهما إلى البيت ، وأخبر أم الحسن بذلك فقبلت وغزلت ثلث الصوف ، ثم أخذت صاعاً من الشعير فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد قرصاً ، وأعدت ذلك للافطار .

وعند الإفطار . . . انتظرت الزهراء علياً ريثما يرجع من المسجد ، وما أن قدم حتى وضعت الخوان وفيه الأرغفة وجلست هي والحسنان ، ومعهم فضّة !

وفجأة طرق الباب طارق .

انه مسكين يقول : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني مما تأكلون ، أطعمكم الله على موائد الجنة .

ولم يكن من الزهراء إلا أن تقدم له كل ما في الخوان .

باتوا جياعاً ، وأصبحوا اليوم الثاني صياماً ولم يذوقوا إلا الماء !

* * *

وفي اليوم الثاني غزلت الزهراء الثلث الثاني من الصوف ، وأخذت صاعاً من الشعير فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص ، واعدت ذلك للافطار .

وهكذا تنتظر الزهراء عليها السلام زوجها الإمام كي يعود من المسجد رتضع الخوان وتجلس الاسرة الطاهرة لتناول طعام الافطار ، بعد

أن أخذ الجوع منهم مأخذه . . . ولكن طارقاً كالذي حضر بالامس يستوقفهم ليقول :

السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا يتيم من يتامى المسلمين أطعموني مما تأكلون ، أطعمكم الله على موائد الجنّة .

لم يتعود علي ولا الزهراء أن يردا أحداً ، أو يتغافلا عن إغاثة أحد وإن كان بهما خصاصة ، فكيف يردان هذا اليتيم ؟

رفع الخوان إلى الطارق كاليوم السابق .

وبات الجميع جياعاً لم يذوقوا إلا الماء .

وفي اليوم الثالث عمدت الزهراء عليها السلام إلى ما تبقى من الصوف فغزلته ، وأخذت الصاع الأخير من الشعير ، فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص ، وأعدتها للافطار .

لكم الله يا أهل البيت !

تذوقون الجوع ثلاثاً ، وتتجرعون ألم الطوى ، رغبة في ذات الله ، وإنفاقاً في سبيله !

ويرجع علي عليه السلام من المسجد ، فيجلس الجميع لتناول الإفطار .

وإذا بطارق يطرق الباب . . .

وتصغي له الزهراء عليها السلام ، وإذا به يقول :

السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ؟!

إنّه أسير من أسرى المشركين ، ولكنه إنسان قبل كل شيء ، يشكو الجوع . . .

وما كان من علي عليه السلام إلا أن يأمر الزهراء برفع الخوان إليه

ويبيتون جياعاً ، ثم يصبحون مفطرين وليس عندهم شيء .

* * *

ويشاء الله أن يظهر فضل أهل البيت !

وتشاء حكمته أن يسجّل لهم هذه المزية في قرآن يتلى على الناس على مرّ الأجيال والقرون . . . فيتذكرون كرماً ما بعده كرم ، وترنو أبصارهم إلى إيثار لا يضاهيه إيثار ، وإطعام على حبّ الله لا يدانيه إطعام .

فيهبط الروح الأمين ويقرأ على النبي (ص):

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. .﴾
إلى أن يصل إلى قوله تعالى :

﴿إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾
﴿عيناً يشرب بها عباد الله ، يفجرونها تفجيراً﴾.
﴿يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً﴾.
﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتيماً وأسيراً﴾ .
﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾[١] .

ويتلقى محمد (ص) هذا الوحي بكل إجلال وإكبار .

ولتخلد للزهراء وعلي والحسنين هذه المزية ، وهذا الإيثار ، ما دام على البسيطة مسلم يتلو القرآن !

---

(١) سورة الدهر: ٥ ـ ٩.

أجر الرسالة

من قال : إن طريق الإصلاح معبّد بالأزهار والرياحين ؟!!

ومن يتصوّر : أن عملاً جباراً كالذي قام به النبي (ص) يتم دون تضحيات ؟!!

ومن زعم : أن تحولاً عظيماً في حياة الجزيرة العربية كالذي حصل على يد منقذ البشرية ، ورسول الإنسانية محمد صلّى الله عليه وآله يتحقق دون عقبات وحواجز ؟!!

لقد تحمل النبي (ص) كل تلك التضحيات برحابة صدر ، واجتاز العقبات والحواجز واحدة بعد الأخرى ، ومهد لانتشار الدعوة الإسلامية بما أوتي من ثبات واستقامة .

حاربته قريش ، وقاطعه بعض أقاربه ، وقوبل بالسخرية والاستهزاء وضيّق الخناق على أصحابه ، فلقوا من التعذيب والاضطهاد ما زاد ثباتاً على ثباتهم ، وصلابة في عقيدتهم .

وإزاء هذا الموقف السلبي !

وإزاء هذا الإضطهاد وذلك التعذيب !

وإزاء كل هذا العَنَت . . .

كان محمد (ص) يقف بين يدي ربّه وقفة ملؤها الخضوع والخشوع ويقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون !

انه الجهل ، والناس أعداء ما جهلوا . . .

* * *

ولو علم العرب ما في الطريق الذي يقودهم إليه محمد (ص) من خير وسؤدد . .

ولو عرفوا أن في اتباع الدين الذي يبشّر به رسول الله (ص)، سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . .

لو عرفوا ذلك ، لما عارضوه ، ولأقبلوا عليه يؤازرونه وينضوون تحت لوائه .

لكنه الجهل ، والناس أعداء ما جهلوا . . .

* * *

وإذ نجحت الدعوة وتمّ الأمر لمحمد صلّى الله عليه وآله في الغلبة على المشركين ، وتحطيم الأصنام ، وصرف العرب عن عبادتها والركون إليها وتحقيق السيادة لهم على وجه الأرض . . . فبماذا يا ترى يجازونه وما هو أجره على الرسالة؟!

أهو المال ؟ وقد كان بامكانه ـ لو شاء ـ أن يملك خزائن الأرض !

أهو السيادة؟ وقد فضّله الله على العالمين !

أهو شيء مما يفكر فيه بنو البشر من اعتبارات مادية ؟

كلّا !

فالرسول العظيم أجلّ من ذلك . إنه يطلب أمراً هو في مقياس المقدرات أسهل ما يكون ، ولكنه في مقياس النفسيات أصعب ما يكون .

ما هو يا ترى ؟!

إنّه (المودّة في القربى) .

أن يحفظوه في أهله ، ويرعوه في قرباه . وهل أهله غير الزهراء وبعلها وبنيها ؟! وهل قرباه غير هؤلاء الأربعة والذرية الطاهرة المنحدرة عنهم ؟!

ولكي يثبت ذلك في الأذهان ، ولأجل ان يكون النص في ذلك صريحاً لا مجال فيه لتأويل أو تحريف ، أمر الله تعالى نبيّه في القرآن بأن يظهر ذلك للملأ .

ليعلن على المسلمين قوله عزّ من قائل :

﴿قل : لا أسألكم عليه أجراً ، إلاّ المودّة في القربى﴾[1] .

ولتطمئنّ نفس محمد (ص) بعد ذلك بأنّه قد أُوتي أجراً على رسالته لا يُضاهى بأي أجر!

ولتكن هذه الآية نقطة إدانة في إضبارة (الزهراء) ضدّ من خاصمها وغصب حقها ، عندما تعرض الأضابير يوم القيامة أمام محكمة العدل الإلهي . . .

وهنالك يخسر المبطلون !

---

(١) سورة الشورى /٢٢.

المباهلة

الجزيرة العربية كانت وثنية قبل مجيء الإسلام ، ولكن هذا لا يعني إنعدام الأديان القديمة فيها . فقد كان هناك يهود في المدينة وخيبر وفدك ونصارى في الطائف ونجران ومواضع أخر .

كان نجاح منطق النبي (ص) في دحر الوثنية طبيعياً ، كما كان تغلبه بالقوة على اليهود الذين أبوا إلا أن يعيثوا في الأرض فساداً ، كافياً في القضاء عليهم . . .

أما النصارى فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم حملة الرسالة السماوية ، وأتباع المسيح عليه السلام ، وما على محمد (ص) إلا أن يثبت لهم أن شريعته جاءت ناسخة للشريعة المسيحية ، وأنه خاتم الأنبياء جميعاً .

ولا يحصل مثل هذا في الغالب إلا بعد نقاش طويل وجدل عريض تتدخل فيه بعض النوازع والحزازات ، وتمنع من الانصياع للحق أحياناً .

لذلك فقد قدم وفد من نصارى (نجران) على النبي صلّى الله عليه وآله يتباحثون معه في شؤون المسيحية والإسلام . وعلى أن النبي استطاع ببيانه المعجز ، وبالبشارات التي جاءت عنه في الإنجيل أن يقنعهم بصورة مبدئية بصدق نبوّته . . . إلا أنهم ظلّوا يشككون ، ولا تطمئن نفوسهم إلى الواقع .

راح النبي (ص) يطلب منهم المباهلة ، والمباهلة عبارة عن الملاعنة يقصد الطرفان منها إثبات الأحقية ، فيسألون الله تعالى إنزال العذاب على الكاذب منهم .

وجاء هذا الأمر بصورة وحي نزل به الروح الأمين :

﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[1] .

* * *

لقد كان الحافز لهذه المباهلة ـ كما قلنا ـ الحرص ـ على توطيد دعامة الحق . وواضح أن مقياس الاختيار في الأشخاص الذين سيباهل بهم النبي إنما هو مقدار تمتعهم بالفضيلة والتقوى ، ورسول الله لا يتجه في ذلك إلا حيث يوجهه الله تعالى .

وقد وافق وفد نصارى نجران على هذا الاقتراح ، وأعدّوا للأمر عدّته ، وكان الموعد : يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة .

* * *

استيقظت المدينة المنوّرة على يوم شهدوا عليه كل سمات التغير والتحول فقد أصبحت البلدة الطيبة غيرها بالأمس ، ولم يبق من لا يتحدث ثم هو لا يستفيض في الحديث عن المباهلة .

ومُدّت الأعناق لترى السلطة الرهيبة ، وصغت الآذان للرعدة القاصفة .

إنها لقريبة جداً ساعة المباهلة ، أو ساعة الإنذار بلعنة الله على

---

(١) سورة آل عمران/٦١.

الكاذبين[٢] .

انه يوم يحمل بين تلافيفه المفاجأة الكبرى ، والدعوة سافرة لا يسترها شيء ، وهي من مقولة الأرقام وليست من مقولة الجدل والبرهان .

يوم يحمل بين طرفيه الحادث الخطير ، يجر في اعقابه ألف حادث وحادث . . .

يحمل بين طيّاته عدالة السماء ، وغضب جبار السماوات ليعطي كلا من المتباهلين نصيبه منها . ويكاد الناس أن يؤمنوا أنها النهاية بعد أن ترتفع الأكف للابتهال ، وتجأر الألسن بالدعاء .

يوم مشهود . . . قف منه حيث شئت فانما تقف على عظمة الرسالة المحمدية تتجلى في نفس واحدة من الأنفس الكثيرة ، وامرأة واحدة من نساء كثيرات ، وطفلين ، طفلين لا غير . . . هم جميعاً صفوة الصفوة ، ولبّ اللباب ، الذين اختارهم الله لكرامته ، وأعدّهم لهداية أمّته من بعد نبيّه .

يوم مشهود . . . اختصم فيه خصمان بربهم . .

* * *

لقد جاءت الساعة المرتقبة ، واللحظة المنتظرة . . . لحظة فقط تنفجر فيها براكين الأرض ، وترسل السماء شهب النار . . لحظة واحدة يهلك فيها الكبير ويفنى الصغير ، حيث زلزلت الأرض زلزالها .

انطلقت الأبصار الى الجهة التي فيها رسول الله صلّى الله عليه وآله ترقب الثغر الباسم والجبين المشرق والوجه الأغر .

---

(٢) لقد أوفى العلامة الشيخ عبد الله السبيتي في الحديث عن المباهلة في كتابه القيّم : (المباهلة). وفي هذا الفصل فقرات مقتبسة من ذلك الكتاب .

يا لجلال الله ، هو ذا رسول الله يخرج ووجهه يشعّ بالنور .

يا لعظمة الحق وجلال الإيمان . . . هوذا يحتضن (الحسين) ويمسك بيمناه (الحسن) وخلفه بضعته (الزهراء) مغشّاة بملاءة من النور ، وهذا (عليّ) يمشي خلفها باهر الجلال ، يرتدي بردة من مهابة الله .

والمباهلة هي القول الفصل في نهاية الجدل وقد اختارها الله لنبيّه واختار له الأشخاص الذين يؤمنون على دعائه .

وبعد ، فالعقل لا يصل الى صورة أرفع من هذه الصورة : وإلى أشخاص في رتبة هؤلاء أو أرفع ، لئلا يقع من العليم الحكيم الترجيح بدون مرجح في المرحلة الحاسمة ، ولأن العقل لا يساند الاختيار إلا إذا وقع على الأمثل من المُثل العليا ، وليس في مكنون علم الله سبحانه أمثل من هؤلاء .

* * *

وتقول الروايات : أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله بشجرتين فقصدتا وكُسح ما بينهما ، حتى إذا كان الغد أمر بكساء أسود رقيق فنشر على الشجرتين على هيئة المخيم .

وخرج زعماء النصارى بأبهى الحلي والحلل . . . ثم أرسل النبي إلى زعيمين منهم ، هما (السيد) و(العاقب) يدعوهما إلى المباهلة .

جفل الوفد وانكمش على نفسه ، عندما رأى تلك الأنوار المشرقة وقال بعضهم لبعض :

- لم يأتنا أبو القاسم بأهل الكبر والشدة من أتباعه ، وإنما جاء بالأعزة والأحبة من أهل التخشع ، وبهلة الأنبياء ، والصفوة الصفوة المختارة .

وهنا كاد اليقين يمس قلوبهم بصدق نبوة محمد صلّى الله عليه وآله فتقدم السيد والعاقب إلى رسول الله (ص):

- يا أبا القاسم بمن تباهلنا ؟

- أباهلكم بخير أهل الأرض وأكرمهم على الله ، هؤلاء . . .[وأشار إلى عليّ وفاطمة والحسن والحسين] .

- فما نراك جئت لتباهلنا بالكبر ولا الكثر ، ولا أهل الشارة ممن نرى ممن آمن بك واتبعك ، وما نرى هنا معك إلا هذا الشاب والمرأة والصبيين ، أبهؤلاء جئت وجئتنا نباهلك ؟

- أجل . بهؤلاء ، وهم خير أهل الأرض وأفضل الخلق .

ورجعوا إلى أسقفهم فقالوا :

- أبا حارثة ماذا ترى ؟

- ماذا أرى ؟ إني لأرى وجوهاً لو سئل الله بها أن يزيل جبلاً من مكانه لأزال . . . أفلا ترون محمداً رافعاً يديه ينظر إلى ما تجيئان به ؟ وحق المسيح ان نطق فوه بكلمة فلا نرجع إلى أهل ولا إلى مال .

كان كل شيء قد تغير ، فالشمس تغير لونها ، وتجمعت في الأفق سحب داكنة ، وهبت رياح سوداء حمراء ، وأخذ الدخان يتصاعد من الجبال . فوعى القس الحقيقة واستطرد قائلاً :

- لقد أطل العذاب . انظروا إلى الطير وهي تقيء حواصلها ، وإلى الشجر كيف تساقط أوراقها ، وإلى هذه الأرض كيف ترجف تحت أقدامنا ؟!

والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيٌّ مرسل ولقد جاءكم بالأمر الفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن وكان الاستئصال . . . وإنما عهدكم باخوانكم حديث ، وقد مسخوا قردة وخنازير .

ويحكم لا تباهلوه .

لا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة !

* * *

وإذ امتنع وفد نصارى نجران عن المباهلة ، عرض النبي صلّى الله عليه وآله الاسلام عليهم ، فأبوا ذلك ، وآثروا البقاء على دين آبائهم .

عند ذلك صالحهم النبي على الجزية ، وكتب لهم بذلك كتاباً . . .

ويذكر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه بعد ذلك :

« والذي نفسي بيده ، ان الهلاك تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حا ل الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا » .

* * *

هذه صورة بلا رتوش !

صورة عن حدث تاريخي وقع في الفترة التي شهد فيها الإسلام استقراراً وتركّزاً في المدينة المنوّرة ، ولكنها تحكي لنا عن مسألة دقيقة حاول أكثر المؤرّخين إخفاءها أو إهمالها بالمرور عليها مرّ الكرام . . .

تلك هي الإشادة بعظمة عليّ والزهراء والحسن والحسين عليهم السلام وبيان منزلتهم عند الله تعالى . ولولا ذلك لما صحّ للنبي صلّى الله عليه وآله أن يباهل النصارى بهم ، ويتفوق عليهم ذلك التفوق المنقطع النظير .

وعلى المطالع المنصف في زوايا التاريخ الإسلامي أن يكتشف بعد ذلك دواعي هذا الاخفاء وأسبابه البعيدة !

آيــة التطهير

وليس من المفاجأة في شيء أن نسمع بأن الله أنزل في علي والزهراء والحسنين آية أخرى دلّت على عصمتهم من الذنوب ، وتنزّههم عن المعاصي واحتلالهم القمة في سلّم الكمال الإنساني .

تلك الآية هي آية التطهير ، وهي قوله تعالى :

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهّركم تطهيراً﴾[1] .

وكان النبي حين نزول هذه الآية الشريفة في بيت أم سلمة ، فعندما نزلت دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين وغطّاهم بكساءٍ يماني ، وقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي .

وأرادت (أم سلمة) أن تدخل معهم تحت الكساء ، فجذبه النبي صلّى الله عليه وآله قائلاً : إنك على خير .

* * *

لم يكتف رسول الله صلّى الله عليه وآله بذلك ، بل بلغ في توضيح

---

(١) سورة الأحزاب/٣٣.

اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة ـ وهو منهم ـ كل مبلغ ، وسلك في إعلان ذلك مسالك ينقطع معها شغب المشاغب .

كان يمرّ ببيت فاطمة كلّما خرج إلى صلاة الفجر ، ويقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً » .

وقد استمر على ذلك ستّة أشهر[1] .

وقال بعضهم : سبعة أشهر[2] .

وقال آخرون.: ثمانية أشهر[3] .

وعلى أيّة حال ، فليس الاختلاف في ذلك بالذي يضرّ بأصل الموضوع ومن هنا ندرك مدى اهتمام الرسول الأعظم ببيان عصمة أهل بيته للملأ ، والإعلان بذلك حتى لا يجحد فضلهم بعد جاحد ، ولا يعارضهم معارض .

وعمله هذا أوضح دليل على نزول الآية في حق هؤلاء فقط .

* * *

لكن النفوس المريضة التي تكنّ الحقد والبغضاء لعلي عليه السلام ، لا يروق لها نور الشمس وتألّقه ، لأنها تألف الظلام وتفرّ من النور ، ولذلك فهي تحاول ـ عبثاً ـ أن تصرف ظهور الآية عن اختصاصها بأهل البيت ، بدعوى أن المراد منها نساء النبي ، نظراً لسياق الآية ، ووقوعها بعد الآيات التي تعرضت لأحكام نساء النبي صلّى الله عليه وآله وسلم .

ولنناقش هذا التضليل من جانبين : السند ، والنص .

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣/٢٥٩ .

(٢) السيد عبد الحسين شرف الدين : الكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء ص٢٠٨ .

(٣) يوسف بن اسماعيل النبهاني: الشرف المؤبد ص٨.

١ ـ السند :

من أشدّ الدعاة إلى اختصاص الآية بنساء النبي تعصباً رجلان :

أ ـ عكرمة .

ب ـ مقاتل بن سليمان .

(أ) أما الأول فيكفي أن نسمع فيه[١] :

١ ـ أنه كان من أصحاب نجدة الحروري (وهو من أشدّ الناس عداوة لعليّ بن أبي طالب) .

٢ ـ أنه من غلاة الخوارج .

٣ ـ أنه كذاب .

٤ ـ أنه غير ثقة .

٥ ـ أنه يميل الى استماع الغناء .

٦ ـ لا يحتج بحديثه .

(ب) وأما الثاني ، فقد ورد في ترجمته[٢] :ـ

١ ـ أنه كان كذاباً جسوراً .

٢ ـ كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم .

٣ ـ كان مشبهاً ، يشبه الرب بالمخلوقين .

---

(١) راجع ترجمته في: (ميزان الاعتدال) للذهبي.
و(مقدمة فتح الباري) للعسقلاني ،
و(وفيات الأعيان) لابن خلكان.
و(معجم الأدباء) لياقوت الحموي ،

(٢) راجع عنه: (الملل والنحل) للشهرستاني.
و(الثقات) لابن حبان البستي.
و(ميزان الاعتدال) للذهبي.

٤ ـ كان يقول : سلوني عما دون العرش ، فسأله أحدهم عن النملة أين أمعاؤها فسكت .

٥ ـ كان من رجال المرجئة .

وإذ عرفنا حالهما ضعف اعتبار حديثهما ، وما أراداه من صرف ظاهر الآية الى نزولها في نساء النبي صلّى الله عليه وآله .

٢ ـ النص

هناك نصوص ثابتة لا مجال فيها لشك أو ترديد ، تصرح بأن آية التطهير نزلت في أصحاب الكساء لا غير .

فمن ذلك ما يلي .

١ ـ عشرون رواية ذكرها السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) من طرق مختلفة .

٢ ـ خمس عشرة رواية ذكرها ابن جرير في تفسيره (المعروف بتفسير الطبري) بأسانيد مختلفة .

٣ ـ رواية ذكرها أحمد بن حنبل في (مسنده) .

٤ ـ وذكر ذلك ابن حجر في (الصواعق المحرقة) .

٥ ـ والطبراني في (المعجم الكبير) .

٦ ـ والواحدي في (أسباب النزول) .

٧ ـ والثعلبي في (تفسيره الكبير) .

يتبين لنا من إستعراض النصوص في هذه المصادر اختصاص الآية بأهل الكساء ـ وهم الخمسة ـ وبطلان ما يرجف المرجفون حولها .

على أن دعوى نزول الآية في حقّ نساء النبي (ص) مردودة بالأدلة التالية :ـ

أولاً : إنها اجتهاد في مقابل النصوص الصريحة والأحاديث المتواترة الصحيحة .

ثانياً : أنها لو كانت خاصة في النساء ، لكان الخطاب في الآية بضمير الجمع المؤنّث ، فتذكير الخطاب في هذه الآية مع تأنيثه في الآيات السابقة عليها أقوى حجّة على عدم نزولها فيهن .

ثالثاً : ان وقوع آية التطهير بين الآيات التي تتعرض لأحكام نساء النبي (ص) استطراد يحسن وقوعه في الكلام البليغ .

رابعاً : ان القرآن لم يترتب عند جمعه حسب ترتيب النزول . وذلك باجماع من المسلمين . فالتمسك بوحدة السياق لا يكفي دليلاً على الدعوى لاحتمال وقوع التغيير في الترتيب .

* * * *

ولا يبقى لنا ـ وقد انتهينا من إثبات سند ما ذهبنا إليه ودلالته ـ إلا أن نقف وقفة الإكبار والإجلال لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا . . .

وهم ـ بعدُ ـ نتاج نورين خُلقا قبل أن تُخلق السماوات والأرض هما نور محمد وعلي .

بلاغتها

لا يستعظم على الزهراء عليها السلام بلاغتها ، بعد أن اتفق المؤرخون على أنها كانت أشبه الناس بأبيها ، وفي ذلك قالت عائشة : « ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله (ص) من فاطمة »[1] .

وكنموذج على بلاغتها نكتفي بهذه الخطبة :

قال سويد بن غفلة : لما مرضت فاطمة سلام الله عليها ، المرضة التي توفيت فيها ، دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يَعُدنها . فقلن لها : كيف أصبحتِ من علّتك يا بنت رسول الله؟ فحمدت الله ، وصلّت على أبيها ، ثم قالت :

نصّ الخطبة :

« أصبحت والله عائفة لدنياكنّ ، قالية لرجالكن ، لفظتهم[2] بعد أن عجمتهم[3] ، وسئمتهم[4] بعد أن سبرتهم[5]، فقبحاً لفلول الحد ،

---

(١) ابن عبد ربّه : العقد الفريد ج٣.

(٢) لفظتهم: رميت بهم.

(٣) عجمتهم: خبرتهم .

(٤) سئمتهم: مللتهم.

(٥) سبرتهم: جربتهم واحداً واحداً .

واللعب بعد الجد ، وقرع الصفات ، وصدع القناة ، وختَلَ الآراء[1] وزلل الأهواء ، وبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها[2] . وشنت عليهم غاراتها ، فجدعاً وعقراً وبعداً للقوم الظالمين .

ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة والدلالة ، ومهبط الروح الأمين ، والطبين[3] بأمور الدين والدنيا ؟! ألا ذلك هو الخسران المبين !

وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟!

نقموا ـ والله ـ منه نكير سيفه ، وقلة مبالاته لحتفه ، وشدة وطأته ونكال وقعته ، وتنمّره[4] في ذات الحق ، وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة ، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة لردّهم إليها ، وحملهم عليها ولسار بهم سيراً سجحاً[5] لا يكلم[6] حشاشه ، ولا يكلّ سائره ، ولا يملّ راكبه ، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويّاً ، تطفح ضفتاه ، ولا يترنق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ، ونصح لهم سراً وإعلاناً . ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل ولا يحظى منها بنائل ، غير ريِّ الناهل وشبعة الكافل ، ولبان لهم الزاهد من الراغب ، والصادق من الكاذب . ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين !

---

(١) ختل الآراء : زيفها وخدعها .
(٢) الأوقة : الثقل .
(٣) الطبين : الفطن الحاذق .
(٤) تنّمره : غضبه .
(٥) سجحاً : سهلاً .
(٦) الكلم : الجرح .

ألا هلمّ فاسمع !! وما عشت أراك الدهر عجباً !! وإن تعجب فعجب قولهم !!

ليتِ شعري ، إلى أي إسناد استندوا ؟! وإلى أي عماد اعتمدوا ؟ وبأيّة عروة تمسّكوا ؟! وعلى أيّة ذرية أقدموا واحتنكوا ؟![1] لبئس المولى ولبئس العشير وبئس للظالمين بدلاً .

استبدلوا ـ والله ـ الذنابى[2] بالقوادم[3] ، والعجز[4] بالكاهل[5] فرغماً لمعاطس[6] قوم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحقّ أن يُتّبع أم من لا يهدي إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون ؟!

أما لعمري لقد لقحت ، فنظرة ريثما تنتج ، ثم احتلبوا ملء القعب[7] دماً عبيطاً ، وزعافاً مبيداً ، هنالك يخسر المبطلون ، ويعرف التالون غبّ[8] ما أسّس الأولون ، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً ، واطمئنوا للفتنة جأشاً ، وأبشروا بسيف صارم ، وسطوة معتدٍ غاشم ، وبهرج شامل ، واستبداد من الظالمين ، يدع فيئكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً . فيا حسرة لكم وأنى بكم وقد عُمّيت عليكم ! أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟! »[9] .

(١) احتنكوا: استولوا .
(٢) الذنابى: ذَنب الطائر.
(٣) القوادم: مقادم ريش الطائر.
(٤) العجز: مؤخر الشيء .
(٥) الكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .
(٦) معاطس: جمع معطس، وهو الأنف.
(٧) القعب: القدح .
(٨) الغب: العاقبة .
(٩) أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج، ج١/١٤٧. مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ـ ١٣٨٦ هـ.

التحليل الأدبي :

هذه الخطبة نموذج واحد من بلاغة بضعة النبي صلّى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام . وهي عند التحليل الأدبي ترقى إلى مصاف النماذج الفذّة للنثر الفنّي في عصر صدر الإسلام ، وإذا استثنينا بلاغة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، فان للناقد الأدبي أن يحكم بسهولة : قصور كل من عاش في تلك الفترة ، بل وحتى في الفترات اللاحقة لها ، عن مسايرة الزهراء في مستواها البلاغي الشامخ .

وليس هذا الأمر بغريب ، بعد أن كانت الزهراء بضعة النبي ، وزوجة الإمام أمير المؤمنين . فهيأ لها أبوها في صباها ، وزوجها في ريعان شبابها فرصة الإبداع الأدبي ، والبلاغة التامة ، والفصاحة الكاملة في حديثها العام فضلاً عن خطبة تلقيها على مسامع وفدٍ من نساء المهاجرين والأنصار .

وإذا أردنا أن نحلّل هذه الخطبة القصيرة على ضوء الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي نجد أنها : ـ

١ ـ أبدعت إبداعاً تاماً في تضمين الآيات القرآنية في أثناء الخطبة ، ذلك التضمين الذي قلما ينجح فيه الأدباء . فان نجاح التضمين يظهر متى بدا للقارىء وكأنّه يقرأ عبارة واحدة مترابطة بين أجزائها ترابطاً وثيقاً ، فلا يحسّ بانتقال سريع من نموذج إلى آخر .

وفي الخطبة نجد هذا اللون من النجاح في التضمين واضحاً تماماً ، فنرى الزهراء تستشهد بآيات من القرآن في قولها :

« بئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون » .

وقولها : ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ .

وقولها : ﴿فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . . ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ .

وقولها : ﴿هنالك يخسر المبطلون﴾ .

وأخيراً قولها : ﴿وأنى بكم وقد عمّيت عليكم ! أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ وهي في ذلك كله تجيد الربط بين كلامها وبين الآية وتحسن حبك بعضها إلى بعض .

٢ ـ أجادت أيضاً في استعمال الأساليب البيانية من كناية واستعارة وفي استخدام المحسّنات البديعية لفظية ومعنوية كالجناس والطباق والتضمين والسجع الفني .

أ ـ خذ مثلاً على ذلك قولها : « استبدلوا ـ والله ـ الذنابى بالقوادم والعجز بالكاهل » فان الذنابى عبارة عن ذنب الطائر ، والقوادم : مقادم ريشه ، والعجز : مؤخر الشيء ، والكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .

وهذه استعارة لطيفة . فقد أرادت الزهراء عليها السلام أن القوم أزاحوا صاحب الحق الشرعي في الخلافة عن التصدي لها وأجبروه على بيعة من هو دونه في علم وفضل وورع وسابقة في دين ، فكانوا بذلك كمن استبدل قوادم الطائر بذنبه ، واستعاض عن الكاهل بالمؤخرة .

وقد أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى أيضاً حين قال : « أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ، ولا يرقى إلي الطير » .

ب ـ واستعارة جميلة أخرى نلاحظها في قولها عليها السلام : « أوردهم منهلاً نميراً » ، ففيه إشارة إلى أن الظروف لو سمحت للإمام في الحكم وتولي أمور المسلمين بنفسه لكان يقودهم إلى حياة إسلامية سعيدة لا أثر فيها للظلم والجشع والاستغلال والإجرام والباطل . . . عندئذ كان الجميع ينهلون من منهل الحق والعدل وينعمون بالدعة والاستقرار .

جـ ـ لما كان التعبير برغم الأنف مبتذلاً ، عدلت عنه الزهراء إلى

قولها : « فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » وهذه كناية بديعة ، حيث كنّت عن الأنف بالمعطس .

د ـ يلاحظ السجع المفرد والمزدوج في هذه الخطبة في أبدع صورة من ذلك قولها : « لو مالوا عن المحجة اللائحة ، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة ، لردّهم إليها ، وحملهم عليها » .

وكذلك السجع في (طائل) و(نائل) و(كافل). . .

وقولها أيضاً : « يدع فيئكم زهيداً ، وجمعكم حصيداً » .

٣ ـ استخدمت بعض الأمثال العربية المتداولة ، في الخطبة مثل : « وما عشت أراك الدهر عجباً » .

٤ ـ اشتملت على كل مقومات الخطبة الناجحة من الاعتماد على الفواصل والجمل المتناسقة ، والخروج من أسلوب الإخبار إلى الإستفهام ، والاستناد إلى الحجج الرصينة والشواهد المحكمة .

وكمثال على تناسق الفواصل ، نأخذ قولها :

ليت شعري .. إلى أي إسناد استندوا ؟؟
وإلى أي عماد اعتمدوا ؟!
وبأية عروةٍ تمسّكوا؟!
وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا ؟!

إنّ لتناسق الفواصل ، وتنوعها من نموذج إلى آخر أهمية بالغة في إضفاء طابع النجاح على الخطبة . ولذلك نجد أن هذه الخطبة للزهراء استوفت جميع تلك العناصر واشتملت على كل تلك المقومات .

وانظر إليها كيف تنتقل من أسلوب الإنشاء إلى الاخبار في قولها : وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟!

وتجيب هي بقولها : نقموا منه نكير سيفه . . .

٥ - وأخيراً نجد في هذه الخطبة الراقية وصفاً دقيقاً لنفسيّات المسلمين في ذلك العصر ، وإشارات واضحة إلى المجتمع المدني بصورة خاصة ، والآثار الوخيمة التي ظهرت في المجتمع الإسلامي بصورة عامة من جراء اغتصابهم المنصب الإلهي العظيم من محله وإسناده إلى غير أهله .

تبدأ بوصف فشل المهاجرين والأنصار في الامتحان الذي مرّوا به من موقفهم تجاه النبي صلّى الله عليه وآله ، الذي سمعوه يقول غير مرّة : « يا علي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي »[1] .

ويقول : « عليّ أخي ووصيي ووزيري وخليفتي من بعدي »[2] .

وقوله يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّه الله ورسوله »[3] فتمنى جميع المسلمين أن يكونوه ، وإذا به يسلّم الراية الى علي عليه السلام ... إلى غير ذلك من النصوص والأحاديث .

... وإذا بهم بعد وفاته ينسجون المؤامرة الظالمة فيزيحون الخلافة عن صاحبها الشرعي الذي تحدث عنها قائلاً : « ان محلي منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير »[4] ، في حين أنه الخبير بدقائق الأحكام وأسرارها ، والعليم بأسس الوحي والرسالة .

في الفقرة الثانية تنتقل الزهراء عليها السلام إلى الأمور التي حملت المسلمين على التخلي عن نصرة عليّ عليه السلام ، والإنتقام منه ، فتعدد لنا أموراً خمسة :

١ ـ نكير سيفه : أي شجاعته وقتله فرسان العرب .

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١/٣٣٠.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٢/٢١٧.
(٣) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ج٣/١٢٣.
(٤) نهج البلاغة، شرح محمد عبده ج١/٢٥ مطبعة الإستقامة، القاهرة .

٢ ـ قلّة مبالاته لحتفه : فقد باع نفسه لله ، ومن كان كذلك فلا يبالي بالموت .

٣ ـ شدّة وطأته: ضبطه للأمور .

٤ ـ نكال وقعته .

٥ ـ تنمّره في ذات الله : فلا يعرف معنى للمداهنة والاحتيال ، إنما هي الحقيقة يطلبها أينما وجدها ، لا يلتمس المبررات والأعذار الواهية التي يراد بها إبطال الحق أو إحقاق الباطل .

ويجمع الجميع كونه مثالاً للشخصية الإسلامية الفذّة في أسمى صورها وأرقى مراتبها .

بعد هذا ، تستطرد عليها السلام في وصف الحالة التي كانوا يصلون إليها لو فسحوا المجال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يأخذ بزمام الحكم ، ويدير دفّة الأمور ، حيث الأمن والاستقرار ، وحيث السعادة والرفاه ، وحيث الحياة الإسلامية الزاهرة التي لا أثر فيها لظلم أو اعوجاج ، ولا مجال لفقر أو جهل ، ولا استهتار أو فساد . ذلك أن كفاءة رئيس الدولة وإحاطته بجميع نواحي الامور التي تحقق الصالح العام للأمة عامل فعّال في تقدم المجتمع وازدهاره .

وفي ظلّ حكومة الإمام علي عليه السلام فقط ، كانت تزدهر التجارة وتتقدم الصناعة ، وتتطور الزراعة ، ويسيطر الرخاء ، والرفاه على شتّى مرافق الحياة .

وإلى ذلك أشارت حين قالت عليها السلام : « ولاوردهم منهلاً نميراً صافياً رويّاً ، تطفح ضفّتاه ، ولا يترنّق جانباه ، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً واعلاناً » .

ثم استشهدت بقوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما

كانوا يكسبون »[1] .

وبعد أن تبيّن حال الأمة الإسلامية في استبدالها صاحب الخلافة الشرعية بمن هو دونه في الكفاءة والعلم والفضل والتقوى ، تتنبّأ لهم بالمآسي التي ستلاقيهم ، وتنذرهم بمصيرهم الأسود الذي سيتحملون أوزاره . . . فتلك هي النتيجة الطبيعية لكل انحراف عن جادة الحق ، وتنكّب عن الصراط المستقيم الذي خطّه الله بحكمته .

(١) سورة الأعراف/٩٥.

عصمتها

ولو أن المسلمين ـ جميعاً ـ اتفقوا على عصمة الأنبياء والأوصياء ، وعصمة النبي محمّد صلّى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين من بعده بالخصوص لسهل علينا حسم النزاع في كثير من المسائل المتعلقة بالحوادث التي وقعت في صدر الإسلام ، وبعد وفاة النبي (ص) على وجه التحديد .

أجل ! كان لنا أن نتمسّك بدليل العصمة لنصحح تصرفات النبي (ص) وعلي والزهراء وذريتها الطاهرة المنصوص عليهم بالإمامة ، ونشنّع على كل من خالفهم في قول أو فعل . . .

ولكن أنّى لنا بذلك وقد شكّك البعض في عصمة النبي (ص) بالذات ، وقصر بعضهم عصمته على الكبائر دون الصغائر ، وحدّدها آخرون بصورة العمد دون الخطأ ، وذهب غيرهم إلى اختصاص ذلك بما بعد البعثة لا قبلها[1] .

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف ، فلسنا بالذين نتحرج من متابعة الرأي الصحيح إذا قام عليه دليل قطعي من العقل والشرع ، وإن كان

---

(١) تعرضت لذكر هذه الأوجه في: دفاع عن العقيدة ص١٧٢ ـ ١٧٤ الطبعة الأولى.

ذلك الرأي مخالفاً لما التزمه كبار السلف !!.

كما لا يهوّل علينا قول مؤرّخ كبير كابن أبي الحديد في هذا الصدد : « أما الكلام في عصمة فاطمة عليها السلام فهو بفنّ الكلام أشبه »[1] .

نحن أتباع الدليل نسير معه ما ظلّ ينير لنا سراجاً يهدينا سواء السبيل ونتوقف حيث يوشك زيت هذا السراج على النفاذ ، أو الانطفاء أمام الرياح العاتية . . .

وإذا أردنا إثبات عصمة الزهراء عليها السلام ، فان علينا إثبات عصمة النبي صلّى الله عليه وآله الذي أكّد على عصمتها ، لكيلا نكون قد ادّعينا فيها ما ليس في أبيها ، أو مستندين إلى ما لم يؤمن به الخصم فيدفع إستدلالنا بكونه نوعاً من المصادرة على المطلوب .

* * *

أما الأدلّة العقلية التي تُساق لإثبات عصمة النبي (ص) فهي :

١ ـ انتفاء الغرض من البعثة :

مما لا شكّ فيه أن الغرض من بعثة الأنبياء إنما هو هداية الناس وإرشادهم إلى الطريق الصحيح ، وذلك بتكليفهم بالتكاليف التي تضمن سعادتهم وفلاحهم .

وهذا لا يحصل إلا باتّباع الناس لأوامر النبي وانقيادهم له .

وهذا أيضاً لا يكون إلا بعدم احتمالهم الخطأ والجهل والكذب في حقهم .

ومن الواضح أنّه لو انتفت العصمة من الأنبياء ، جاز في حقهم

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/٢٨٣، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ـ ١٩٦٢ م.

الكذب والخطأ ، وإذا جاز في حقهم ذلك لم يحصل الانقياد لهم ، وإذا لم يحصل الانقياد لهم إنتفى الغرض من بعثتهم ، فيكون ذلك عبثاً ، والعبث يستحيل على الخالق الحكيم .

٢ ـ وجوب متابعة النبي :

إن النبي (ص) تجب متابعته . فإذا ارتكب معصية ـ في فرض عدم عصمته ـ فأمّا أن يطيعه الناس ويتبعونه ويفعلون ما يفعل ، أو لا يطيعونه . فان كان الأول لزم من ذلك أن يكون الله سبحانه آمراً بالقبيح ، لأنه أمر باتباع النبي ، والمفروض أن النبي مرتكب للقبيح .

وإن كان الثاني لزم منه انتفاء فائدة البعثة . وهذا ما أبطلناه في الدليل الأول .

٣ ـ النهي عن المنكر :

لو جاز صدور الذنب من النبي وارتكاب المنكرات فأما أن يسكت الناس عنه أو ينهوه عن المنكر .

فعلى الأول لا يبرر صدور الذنب من النبي ترك الناس النهي عن المنكر لأنه واجب على الجميع ، وتجاه الجميع ، فلا يجوز تعطيل هذا الواجب .

وعلى الثاني فانه يستلزم إيذاءه وجرح عواطفه وهو ما نهى الله عنه حيث قال : **﴿إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾**[1] .

* * *

هذه هي الأدلة العقلية على وجوب العصمة في النبي . ولما كانت الخلافة امتداداً للنبوة ، وصورة مضارعة لها لا تختلف عنها إلا في الوحي

---

(١) سورة الأحزاب/٥٧.

فان الخليفة (الإمام) هو أيضاً يجب أن يكون معصوماً .

هذا في مقام الإثبات .

أما في مقام الثبوت فقد اتفقت الأمة على أن رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يصدر منه طيلة عمره ما يخلّ بعصمته . وإذا تذكرنا أن العرب كانت تبذل كل طاقاتها لهدم أساس الدعوة الإسلامية ، ومعارضة النبي (ص) في دينه الجديد ، وأن الدواعي للتشنيع عليه كانت متوفرة لو صدر منه ذنب أو أمر مخلّ بالمروءة والشرف حتى قبل البعثة ، لكان في ذلك المجال الفسيح لمعارضته والقيام بوجهه . . . وإذ لم يصدر مثل هذا التشنيع من قبل المشركين فانه دليل على عصمته وتنزهه عن الذنوب والمعاصي .

* * *

وإذا ثبتت لدينا عصمة النبي صلّى الله عليه وآله فاننا ننتقل إلى عصمة الصدّيقة الزهراء .

لقد شهد بعصمتها الكتاب الكريم حيث قال :

١ ـ ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[١] .

ومن الثابت أن أهل بيت النبي الذين أكّد على رعاية حقهم والتزام أوامرهم والتمسّك بهم هم : عليّ ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين .

وقد تقدّم تحت عنوان (آية التطهير) ما يثبت ذلك . فهذه الآية تدلّ دلالة صريحة على أن أهل البيت منزّهون عن كل معصية ومطهّرون من كل ذنب .

٢ ـ ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا

(١) سورة الأحزاب/٣٣.

ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[1] .

وقد سبق أن ذكرنا أن المراد من (نساءنا) في هذه الآية الكريمة فاطمة عليها السلام . وهي تدل على أن الخمسة الذين أمر الله نبيّه بمباهلة النصارى بهم إنما هم على درجة من التقوى والاستقامة والمنزلة عنده عزّ وجلّ بحيث يستحقون اختيارهم لهذه المهمة العظيمة .

إنهم الصفوة المرضية من عباده ، والمباهلة لا تصح بمن تصدر منهم المعاصي والذنوب .

وحسب الزهراء أن تكون « مختارة الله ليباهل بها رسول الله من تسع نسوة هنّ أمهات المؤمنين ، ومن بين نسوة زكيّات المغرس في المنبت الاثيل والشرف الموروث في المجد المؤثل ، خفرات عمرو العلي ، غرة المجد وعقائل شيبة الحمد ، كأم هاني وصفية » .

ولا يجوز عند العقل أن يكون اختيار ولا تكون أفضلية ، ولا يتأتى الاختيار إلا إذا لم يكن هناك كمال مطلق وأفضلية على سائر النساء ، وإلا لزم الترجيح بدون مرجح ، وهذا مستحيل عند العقل ، لا يجوز على الحكيم .

ومن أجل هذا الاختيار نفهم التفضيل المطلق بدون مشاركة ، لأن العقل لا يفهم الاختيار مع التساوي في الفضيلة والمشاركة في الكمال .

فلا بدّ إذن من أفضلية وأكملية ليقع الاختيار صحيحاً طبق العقل .

وإذا كانت سلام الله عليها قد اختارها الله مع من اختار ، فما ذلك إلا من سموّ القدس وغلبة الروحانية في الإنسانية الطاهرة المهذبة ، وإذا غلبت الروحانية فقد تكاملت المثل العليا في النسوية العالية .

(١) سورة آل عمران/٦١.

وعلى قدر نشأة النواميس الروحية في النفس البشرية تسمو الإنسانية وترتفع إلى منزلتها السامية التي أعدّت لها في المكان الأرفع .

وحيث تجمّعت القوى الروحية والنواميس القدسية في هذا الملاك النسوي الطاهر فقد تهيّأت النفس للمثل العليا وخرقت العادة في اطرادها البشري حتى تستحيل إلى معجزة في كمال الوجود ، وكمال الفضيلة .

وهكذا كانت فاطمة بنت محمد عليه وعليها السلام . فقد تجمع في نسويتها نواميس روحية وكمالات نفسية. رفعتها في الإنسانية إلى أسمى الدرجات التي يصح في العقل أن ترتفع إليها امرأة ، فهي إذن سيّدة نساء العالمين[1] .

* * *

أما شهادة النبي صلّى الله عليه وآله بعصمة الزهراء فتظهر من خلال النصوص الآتية :

١ ـ قوله (ص) : « إن الله يغضب لغضب فاطمة ، ويرضى لرضاها[2]» .

ومن الواضح أن الله لا يغضب لغضب عبد من عباده إلا إذا كان معصوماً ، وإلا فان غضبه لغضب العبد المذنب ورضاه لرضاه يكون إقراراً له على ذنوبه ، وتشجيعاً لاستمراره في ارتكاب المعاصي ، وهذا قبيح ، يتنزّه الله تعالى عنه .

٢ ـ قوله (ص) : « فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة »[3] .

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على احتلال الصدّيقة الزهراء القمّة في الكمال النسوي . وهذا لا يحصل إلا بتنزّهها عن الذنوب والمعاصي .

٣ ـ قوله (ص) : « إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي

(١) عبد الله السبيتي : المباهلة ، ص٦٧ ـ ١٣٦٦ هـ.

(٢) أحمد بن سليمان القندوزي : ينابيع المودة ص١٧٣ .

(٣) البخاري : الجامع الصحيح نقلاً عن القندوزي : ينابيع المودة ص١٧٢ .

وَعْيُ المَوْقِف

أهل بيتي ، ما أن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[1] .

فقد أمر (ص) بالتمسك بالثقلين ، وقارن العترة بالكتاب . . . وهذا أوضح دليل على عصمة العترة ، لأنهم لو لم يكونوا معصومين لم تصح مقارنتهم بالكتاب المنزل وإيجاب التمسك بهم .

على أن هناك نصوصاً كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه ، ولكن في ما ذكر غنى عن الإطالة .

---

(١) روى ذلك زهاء ٢٠٠ راويا أحصاهم السيد مير حامد حسين في موسوعته القيمة: (عبقات الأنوار في إثبات إمامة الأئمة الأطهار)، منهم:
- البخاري في (صحيحه).
- أحمد بن حنبل في (مسنده).
- الحاكم النيسابوري في (المستدرك).
- مسلم في (صحيحه).
- الترمذي في (سننه).
- الطبراني في (المعجم الكبير).



إدراك أبعاد الموقف الذي يقفه الإنسان ، لا يتسنّى لكل أحد ، فهناك الكثيرون ممن يقفون مواقف معينة ، دون أن يصدروا في موقفهم ذاك عن وعي وتخطيط .

بينما تمتاز القلة من الأفراد ببنوغ وعبقرية يستطيعون بهما من التعمق في الأمور ، وتناولها بأسلوب فلسفي دقيق .

* * *

كذلك الزهراء عليها السلام في خطبتها العظيمة التي ألقتها على جماهير المسلمين في باحة المسجد .

لقد ارتجّ المسجد لخطبتها . .

وارتجّ الناس لها حتى ضجّوا بالبكاء والعويل . . .

وارتجّت العقول المفكّرة في ذلك العصر - على قلّتها - من عظمة الفلسفة التي تضمّنتها خطبة الصدّيقة الزهراء عليها السلام في عصر كان يرى المرأة لا تقدر أن ترتفع إلى مستوى الرجل أو مستوى الإنسان !!

صغت القلوب قبل الآذان إلى حديث فاطمة ، ثم أدركت أنها على جانب عظيم من الوعي والإدراك .

ذلك أنها تناولت معظم جوانب التشريع الإسلامي فذكرت لكل جانب حكمته وفلسفته . . .

حلّلت الأمور تحليلاً دقيقاً ، وذكرت المشاكل والآفات الاجتماعية والفردية ، والاقتصادية والسياسية ، والنفسية والأخلاقية . . . ثم أوضحت كيف أن الإسلام عالجها علاجاً حكيماً ، وأنه كيف استطاع أن يستأصل جذور الشر والفساد والتحلل والانهيار من المجتمع العربي .

ذكرت ذلك كلّه وأبانت الحلول الإسلامية العظيمة لمختلف المشاكل والمآسي ، فأثبتت أن الإسلام هو الدين القيّم ، وهو الدين الخالد ، وهو الشريعة التي ستبقى أبد الدهر لأنها تتضمن أسس السعادة الإنسانية ولا تدع زاوية من زوايا الحياة إلاّ ووضعت لها علاجاً حكيماً .

وعلى سبيل النموذج تعال معي أيها القارىء الكريم لنستخرج نقاطاً جلية من هذه الخطبة البليغة ، نجد فيها وعياً قصر أكثر الصحابة من إحرازه على كبر سنّهم ، وحازته الزهراء عليها السلام على صغر سنّها . . . وهذا إن دلّ على شيء فلا يدلّ إلا على أن أهل البيت عليهم السلام هم الصفوة المختارة التي اختارها الله تعالى لحمل رسالته إلى الأفراد وضمان حياة المثل العليا والسلوك الحميد بين بني البشر .

* * *

١ ـ الصلاة :

تستعرض الزهراء عليها السلام الحكمة في تشريع الصلاة ، فتلخصها في جملة قصيرة ، حيث تقول :

« والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر » .

إن الإسلام حيث يقرر العبودية لله تعالى فانه يقصد من وراء ذلك أن يحرر الإنسان . فلئن بدأت الجولة بالعبودية لله وحده فانها تنتهي بالحرية التامة التي تجعل الفرد لا يخضع لأية قوة مهما كانت عاتية .

هكذا تقوم معركة التحرير في المنطق الإسلامي . أما في منطق المذاهب التي تدعو إلى الحرية المطلقة ، فان الجولة فيها وإن بدأت بالحرية لكنها تنتهي بالعبودية للشهوة ، والعبودية للجاه ، والعبودية للأطماع .

هنا تقرر الزهراء عليها السلام ـ وبوجه قاطع ـ أن الفائدة التي تعود على الإنسان من إقامته للصلاة هي تنزهه من الكبر ، ذلك الداء الوبيل الذي يُفقد التعقل والإدراك من صاحبه ، ويجعله يسبح في عالم من الخيال الفارغ ، الذي يجد فيه نفسه فوق مستوى الآخرين .

على أن السمو الروحي فائدة أخرى تعود على الإنسان المصلّي ، ذلك ما قرّره القرآن الكريم حيث قال : ﴿**إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ .

٢ ـ الزكاة :

وقد تعجب حين تسمع الزهراء عليها السلام تقول :

« والزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق » .

فتقول : وكيف يكون أداء الزكاة نماءً في الرزق في حين أن الفرد يبذل أمواله وينفقها ، والانفاق عكس النماء ؟ . لكن عجبك هذا سرعان ما يزول إذا عرفت أن النتيجة التي تحصل من مساعدة الضعفاء والفقراء هي ارتفاع مستواهم الاقتصادي وبلوغهم مرحلة مناسبة من الانعاش المادي . . . الأمر الذي يؤدي إلى زيادة القوة الشرائية عند أكبر كمية من أفراد المجتمع ومن أوليات ما يتعلمه دارسو الاقتصاد أن ازدياد القوة الشرائية عند الأفراد يؤدي إلى زيادة الإنتاج وزيادة الاقبال على السلع والخدمات ، الأمر الذي ينتهي بالفائدة والسعة في الرزق لجميع الأفراد .

هذا مضافاً إلى أن الله تعالى وهو الرازق الأول سيكافىء هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيله بأضعاف ما أنفقوا فيهيىء لهم وسائل التقدم والنجاح دائماً .

إنّنا إذا استقرأنا أحوال الأفراد الذين يمدّون يد العون إلى الفقراء والضعفاء بسخاء ، ويسهمون في المشاريع الخيرية ، ويؤدون ما عليهم من واجبات مالية نجد أن غالبيتهم يسيرون في خط تصاعدي بالنسبة إلى الثروة وزيادة الدخل .

٣ ـ الصوم :

وحين أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الصوم قالت :

« والصيام تثبيتاً للاخلاص » .

متى يستطيع الفرد من إثبات إخلاصه لله تعالى ؟! عندما ينجح في السيطرة على غرائزه وشهواته وتوجيهها الوجهة المعقولة التي لا إفراط فيها ولا تفريط . وفي الصيام تتجلى أعلى مظاهر ضبط النفس والسيطرة على زمام الشهوات . فان الإنسان ـ وبمحض إرادته ـ يمسك عن الطعام طيلة النهار ، وكذلك يمسك عن الشراب وعن كثير من الامور كممارسة الوظيفة الجنسية وما شاكلها ، وبذلك يثبت إخلاصه لله تعالى .

٤ ـ الحج :

أما عن الحج فقد قالت عليها السلام :

« والحج تشييداً للدين » .

ان هذا الواجب الإسلامي المقدس يهدف إلى أسمى الغايات وأعظم المقاصد ، ذلك هو التقاء جهود المسلمين جميعاً وتبادل وجهات النظر فيما بينهم في المسائل والشؤون التي تهمهم .

وجميع مناسك الحج ترمز إلى حقائق أعمق مما يتصوره الأفراد السذّج .

فالطواف مثلاً حول البيت يمثل ضرورة دوران نشاط الفرد حول نقطة مركزية واحدة هي رضا الله تعالى ، وتعبيراً عن هذه المشاعر فان

الفرد يدور حول البيت ويطوف به ليؤكد تأسيس جميع أعماله وأفكاره وأقواله على أساس من رضا الله وإرادته .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون الحجّ تشييداً للدين ، فهو بمثابة مؤتمر موسّع يستوعب مئات الألوف من المسلمين كل عام ، كلّ يحاول أن يستفيد ممّا لدى أخيه المسلم من تجارب وآراء .

٥ ـ العدل :

وعن العدل قالت عليها السلام :

« والعدل تنسيقاً للقلوب » .

إن العدل أساس الاستقامة في النظام الإجتماعي ، وهو الضمان الوحيد لسيطرة الأمن والهدوء على جميع الناس .

إن التشريع العادل هو الجدير بالبقاء لأنه يعامل الناس جميعاً معاملة واحدة لا يميز فيها بين غنيّ وفقير ، وشريف ووضيع ، وقوي وضعيف .

القوي هو صاحب الحق في منطق الإسلام .

والضعيف هو المغلوب على أمره ، الذي لا يملك حجّة على ما يذهب .

الغنيّ هو الذي يملك إيماناً خالصاً وعقيدة راسخة .

والفقير هو الذي يتذبذب في تفكيره وعقيدته .

الشريف هو الذي يستغل مواهبه وطاقاته في الخير .

والوضيع هو الذي لا يرتفع عن مستوى البهائم .

وبعد هذا كله فهم أمام القانون سواء ، يقوم ميزان العدالة بالحكم فيما بينهم بالقسطاس المستقيم . وهذا أدعى للتآلف بين القلوب وتنسيقها ، كما قالت الزهراء .

٦ ـ وجوب طاعة أهل البيت :

وهكذا تستطرد الزهراء عليها السلام في حديثها عن فلسفة الأحكام فتقول :

« وطاعتنا نظاماً للملة » .

لا شكّ أن الأمة تحتاج إلى من يأخذ بيدها نحو شاطىء الخير والهداية دائماً ، إنها لا تستغني عمن يقوم بدور الإرشاد والتوجيه . والذي يقوم بهذه المهمة هم أهل البيت عليهم السلام ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .

وعلى هذا الأساس فان طاعة أهل البيت هي الركيزة الأولى في بناء النظام الإسلامي .

ومن هنا جاء الحثّ على اطاعتهم في القرآن الكريم حيث قال عزّ من قائل : ﴿ أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ .

٧ ـ الإمامة :

وتكملة لموضوع الطاعة تقول عن الإمامة :

« وإمامتنا أماناً من الفرقة » .

الإمامة ليست إلا امتداداً للنبوة ، وظلاً لها ، واستمرارية لتلك المسؤولية العظمىَ التي يضطلع بها النبي في قيادة الأمة وتوجيهها . وعلى هذا فان نصب الإمام من قبل الله تعالى كالنص على النبي وتعيينه ضروري لعدم تفرق الناس وتشتّتهم، ولجمعهم على كلمة التوحيد .

إنَّ الأئمة عليهم السلام هم الأنوار الساطعة في الأرض الذين يرشدون الناس إلى الأحكام الإسلامية ، ويجنبونهم من المشاكل والأخطار التي تسبب لهم الدمار والشقاء .

الأئمة عليهم السلام هم الأعلام الواضحة التي يستضيء بها الناس

في متاهات الحياة .

وانطلاقاً من هذه الزاوية أكّدت الزهراء عليها السلام في كل مواقفها البارزة على دور الإمام علي عليه السلام في مسألة المصير الإسلامي ، والقيادة بأجلى مفاهيمها .

٨ ـ الجهاد :

وهل يشك أحد أن « الجهاد عزّ الإسلام » كما قالت الزهراء عليها السلام ؟!

إن الدولة ـ أية دولة تحتاج إلى قوة دفاعية تحصنها ضد اعتداء الأعداء وتجاوزهم ، ومن هنا راحت الدول تصرف الملايين من الدنانير سنوياً على مسألة الدفاع .

وتشريع الإسلام للجهاد إنما هو تأكيد على ما عهدته البشرية من ضرورة تقوية المراكز الحساسة في الدولة منعاً للأعداء من إلحاق الأذى بالمواطنين .

وإلى هذا أشار القرآن الكريم في قوله : ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم**﴾ .

كما أكّد عليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال : « أما بعد ، فان الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة » . .

٩ ـ الصبر :

وقالت عن الصبر :

« والصبر معونة على استيجاب الأجر » .

من البديهي أن طريق الاصلاح ليس معبداً بالأزهار والرياحين ، بل تعترضه العقبات والعراقيل ، وهو مليء بالمخاطر . . . وعليه فلا بد على

الفرد أن يواجه المشكلات برحابة صدر ويعمل على حلها بدقة واتقان .

هنا يبرز دور الصبر وأهميته ، حيث انه يمنح الإنسان طاقة لمواصلة السير حتى النهايه . ولذلك فطبيعي أن يكون معونة على استيجاب الأجر من الله تعالى .

١٠ ـ الأمر بالمعروف :

والأمر بالمعروف هذه الدعامة العظيمة قالت الزهراء عليها السلام عنه .

« مصلحة العامة » .

أجل ، فان قوام المجتمع إنما هو بتكاتف أفراده وتواصيهم على الحق والخير ، يجعل كل فرد من نفسه رقيباً على الآخرين ، يدعوهم إلى التزام العمل الصالح ، يحثهم على السلوك الفاضل . ولهذا أثره الكبير في تقدم المجتمع وانتشار الوعي بين أفراده .

إن الأمر بالمعروف في منطق الزهراء عليها السلام ـ وهو لا يعدو أن يكون منطق الإسلام بالذات ـ يحقق أكبر مقدار ممكن من المصلحة للأمة .

كل فرد من افراد الأمة الإسلامية راع والجميع مسؤولون عن رعيّتهم ولا يخفى أن الشعور بالمسؤولية أساس ضمان الحقوق لجميع الأفراد ، وأساس التقدم والنجاح .

١١ ـ النهي عن المنكر :

ومن مستلزمات الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، وهما شقان لمبدأ واحد .

وعليهما ترتكز سلامة المجتمع وازدهاره .

كل فرد يحاول اقتلاع جذور الشر والفساد من المجتمع . . .

وكل فرد يعمل على ردع الخارجين على الآداب والتعاليم الإسلامية

بالأسلوب النافع . . .

كل فرد يدعو الى الخير والفضيلة . .

وهناك المجتمع الفاضل !!

١٢ ـ برّ الوالدين :

ثم ذكرت الحكمة في البر بالوالدين فقالت عليها السلام :

« وقاية من السخط » .

إن الإسلام يحرص على تماسك المجتمع ووحدته ، والأسرة لبنة المجتمع وأساسه ، فلا بد أن يولي الإسلام اهتماماً بالغاً نحو وحدة الأسرة وتشديد أواصر أفرادها .

أنه يؤكّد على رعاية حقوق الوالدين ، والبر بهما ، وفي نفس الوقت يوصي الوالدين بالرفق بأطفالهما والتزام أسلوب معقول في تربيتهما .

هنا يظهر التقابل في الحقوق والواجبات ، ولكن هذا لا يعني أن تقصير أحدهما في واجباته يبرر خروج الآخر أيضاً مما عهد به إليه من دور ، بل على العكس من ذلك فان عليه أن يقول لهما قولاً كريماً .

١٣ ـ صلة الأرحام :

وإذا فرغ الإسلام من التأكيد على وحدة الأسرة وتماسكها انتقل إلى الأسر الأخرى التي ترتبط بهذه الاسرة بروابط القربى والرحم ، فأخذ يؤكّد على ضرورة صلة الأرحام .

وحين تأتي الزهراء عليها السلام إلى هذا الموضوع تقول :

« وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد »

أجل ، ان التواصل بين الأقارب وتعاطفهم ومساعدة بعضهم لبعض من أهم عوامل الرفاه والطمأنينة في المجتمع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٤ ـ القصاص :

أما القصاص فقد أوجبه الإسلام : « حقناً للدماء » .

ولا شكّ أنه الاسلوب الأمثل في معالجة الجرائم . لا يدانيه في ذلك أي تشريع . إن بعض البسطاء الذين لا يملكون نصيباً وافراً من العلم يتحاملون على الإسلام في قسوة عقوباته ، غافلين أنها الضمان الصحيح لعدم انتشار الجرائم في المجتمع .

إن الفرد يرى النظام الجنائي في المجتمع قائماً على المقابلة بالمثل (أي القصاص) في الجرائم التي تقع على النفس يربأ بنفسه من أن يقدم على القتل . لأنه يعلم يقيناً أنه إذا قتل شخصاً فجزاءه القتل ، وإذا فقأ عين رجل فان عينه تفقأ . . .

أسألك بالله ، هل تسمح غريزة حب الذات للفرد بأن يعرّض نفسه للقتل عندما يقتل شخصاً ؟!

إنّه العلاج الحاسم للوقاية من الجرائم . .

أي شيء فعلته السجون حين راح المجرم يقضي فترة من حياته في زاوية السجن ؟!

أجل تفنّن المجرم أكثر ، واستفاد من تجارب زملائه . وتعلّم أنواعاً أخرى من الجرائم لم يكن يعرفها من قبل ، وكأنّنا أردنا من العقاب على الجريمة الإكثار منها .

كلّا ، فان الحلول الأرضية فاشلة كلها ، ولتخلد شريعة الله التي جاءت بالحلّ الحاسم .

١٥ ـ الوفاء بالنذر :

وإذ يفي الإنسان بالنذر الذي التزمه على نفسه تجاه الله ، فانه يؤكد على طاعته لله تعالى ، ومعرفة حق خالقه عليه ، وهو عندئذ يكون

مستوجباً لمغفرته ورضوانه .

ومن هنا قالت الزهراء عليها السلام .

« والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة » .

١٦ - توفية المكاييل والموازين :

وعن هذا الأمر أيضاً تحدثت الزهراء عليها السلام فقالت :

« وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس » .

إنّ الإسلام يحارب الاستغلال ، ويحارب الغبن ، ويحارب البخس ، إنه لا يرتضي إلا العدل . . يريد من الأفراد جميعاً أن يعيشوا متضامنين متكاتفين . وإيفاء المكاييل والموازين يقوم بدور مهمّ في تحقيق هذه الغاية . إنّه لا يفسح مجالاً للبخس والغبن ، بل يعطي لكل فرد حقّه .

١٧ - النهي عن شرب الخمر :

أما عن حكمة النهي عن شرب الخمر فقد قالت سلام الله عليها :

« تنزيهاً عن الرجس » .

والخمرة هذه الجرثومة الخبيثة التي حاربتها جميع الشرايع السماوية أوضح ما فيها أنها تذهب بالعقل ،وإذا سلبت من الفرد عقله ، فماذا سيكون يا ترى ؟!

إنه وحش كاسر ، أو بهيمة تافهة .

من أجل ذلك وحرصاً على سلامة العقل فان الاسلام حارب الخمرة حرباً لا هوادة فيها . حتى أنه منع المسلمين من تزويج فتياتهم من شاربي الخمر ، فقد ورد في الحديث : « من زوّج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها » .

١٨ ـ اجتناب القذف :

وعن الحكمة في اجتناب القذف من قبل المسلم قالت عليها السلام :

« حجاباً عن اللعنة » .

أجل فالقذف يورث اللعنة التي تنصبّ على كل من يحاول أن يتهم بريئاً ، أو ينسب لشخص آخر من المساوىء ما ليس فيه .

١٩ ـ ترك السرقة :

وهل ترك السرقة إلا لكي يعيش الناس في أمان وهدوء . شاعرين بكرامتهم وعدم اعتداء أي فرد على حقوقهم ؟!

وهل هذا كله إلا العفة ؟!

العفة عن الطمع في أموال الآخرين . . والعفة عن التجاوز على حقوق الناس . . والعفة عن الاعتداء على الغير .

٢٠ ـ حرمة الشرك :

وإذ أتت الزهراء عليها السلام على ذكر الشرك وحرمته قالت : « وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية » .

ومن الواضح أن أساس الإيمان يقوم على التوحيد ، والاذعان للخالق الذي خلق الكون وما فيه ، ونظّم هذا العالم والعوالم الأخرى التي لا نشهدها ولا نعلم بها تنظيماً دقيقاً لا مجال لاعوجاج فيه .

الإيمان بالله يستلزم توحيده وعدم الشرك به ، فان الله ﴿لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر دون ذلك﴾ .

خاتمة الجولة :

بعد هذه الجولة التي وقفنا فيها وقفات قصيرة عند كل زاوية من

زوايا التشريع الإسلامي الواردة في هذه الخطبة ، لا أشك ـ قارئي الكريم ـ أنك قد خرجت معي بنتيجة ساطعة هي أن الزهراء عليها السلام أدركت حقيقة الموقف ، ووعت روح الشريعة ، وتفهّمت أسس الإسلام ، مما جعلها جديرة كل الجدارة بأن تكون أحد الخمسة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وأن تكون من ضمن العترة التي تعتبر الثقل الآخر الذي ينضم إلى كتاب الله تعالى ـ الثقل الأكبر ـ ليكونا سوية وديعة رسول الله صلّى الله عليه وآله في أمته .



بَيْنَ عَهْدَيْن

١- وفـــاة النـبيّ
٢- بَعْـدَ وَفَاةِ النـبيّ



وفــاة الـنـبـيّ

يطل العام الحادي عشر للهجرة ، ويكاد رسول الله ـ لتوّه ـ أن ينتهي من وضع الأسس والركائز الثابتة للشريعة الإسلامية التي كتب لها الله الخلود والبقاء باعتبارها خاتمة الشرائع .

ولا بدّ للنفس الكبيرة من أن تعود إلى بارئها راضية مطمئنة ، وقد حققت أعظم تحول في تاريخ البشرية . . .

لا بدّ لها أن تفيض الى من عرفته بعمق ، ودعت إليه باخلاص ، وضحت في سبيل إعلاء كلمته بجد وثبات . . .

لا بدّ من يوم خط بالقلم !

والموت خُط على وُلد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة . .

* * *

خرج النبي صلّى الله عليه وآله في آخر فجر من حياته الى الصلاة فصلّى بالمسلمين الغداة ، وكان هذا آخر عهدهم برؤية تلك الطلعة المحبوبة وذلك النور الإلهي .

لم تزل شمس السماء إلا وقد آذنت شمس الأرض بالمغيب من أفقها إلى الأفق الدائم .

وها هو النبي مسجى بين أهله ينتدبون فيه حظهم ، والباب مغلق دون الناس .

ما أعظمه من يوم على الأمة !

فقدوا فيه أعظم نعمة عرفتها الإنسانية !

فقدوا العظمة والكمال . . .

فقدوا المجد والعزّة . . .

فقدوا النفس الكبيرة ، والروح العالية ، فأعظم بيومه يوماً ! وأعظم به فقيداً . .

ولقد أصبح مضرب المثل للمسلمين فيما بعد ، استشهدوا به كلما عظمت عليهم داهية ، أو نزلت بهم مصيبة ، فقالوا : « انه كيوم مات فيه رسول الله » .

* * *

البيت يضجّ بالبكاء والعويل ، والباب مغلق على من فيه .

لقد فقدت الزهراء أباها العظيم ، والرزء به جلل ، والمصاب فيه فادح . . . فحق لها أن تبكي وتعول في البكاء ، وتئنّ وتطيل في الأنين !

ولكن فكرة أخرى كانت تراودها ، وأحداثاً مرعبة كانت تتجسد أمام ناظريها ، فتزيد في لوعتها وأنينها ، وتضيف غصّة إلى غصّتها ، وهمّاً إلى همّها .

وذلك أن رسول الله صلّى الله عليه وآله حين حضرته الوفاة دعا بأهله وعياله وأوصاهم بوصاياه ، ثم جذب فاطمة (ع) تحت ردائه وأسرّ إليها بأشياء فأخذت تبكي ، ثم أسر إليها بشيء ففرحت . ولما سئلت عن ذلك ، قالت : أسرّ إلي في الأول بالمصائب التي ستجري علينا ـ أهل البيت ـ بعد وفاته فتألمت كثيراً ، فلما رأى ذلك بشّرني بأني سريعة اللحاق به .

رحماك اللهم !

ألست أنت الذي تغضب لغضب فاطمة ، وترضى لرضاها ؟

ويهون عليكِ أيتها الزهراء ، يا بضعة النبي ، أنكِ سريعة اللحاق بوالدك العظيم .

سمع المسلمون الواعية من بيت رسول الله ، فهرعوا يجتمعون في المسجد والطرقات وقد أخذت المصيبة بمجامع قلوبهم ، ناكسين رؤوسهم ، قد شرد منهم اللب ، وطاش الفكر . . . لا يعرفون ما يفعلون فأصبحوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية .

وما عساهم يفعلون ، والأنباء يجب أن تخرج إليهم من داخل الدار في حين أن علياً عليه السلام مشغول بتجهيز النبي ؟!

وهل بعد هذا كله مايشكك في موت النبي؟!

بلى ، أبى عمر بن الخطاب على الناس تصديقهم بموت نبيِّهم ، فأخذ يصرخ في وجوه المسلمين ويهددهم ويتوعدهم . راح يهتف بهم :

« ما مات رسول الله ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله ، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، ممن أرجف بموته . لا أسمع رجلاً يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفي » .

لقد كانت الدعوة صارمة ، وثائرة . . . استعمل فيها الخطيب (عمر بن الخطاب) أقصى درجات الصرامة ، وأشد المغريات الخلابة للجماعات . فمن أمل بحياة الرسول وباظهار دينه على الدين كله ، إلى توعيد بقطع رسول الله أيدي وأرجل المرجفين بموته ، وتهديد من عمر بقتل من يقول : مات رسول الله .

إنهما الخوف والأمل ، إذا اجتمعا مع هذا الرأي القاطع ، والإرادة الصارمة كان لهما التأثير العظيم على أفكار الجماعة وتخدير أعصابها .

* * *

وبحكم حبّ المسلمين لنبيّهم العظيم ، وعدم رضاهم بموته ، جاءت الدعوة شديدة التأثير في نفوسهم ، فلم يعترض أحد على عمر بن الخطاب قوله ، وساد الجميع اعتقاد بعدم موت النبي صلّى الله عليه وآله .

عاش المسلمون ساعات ملؤها الذهول والحيرة ، يمنعهم التصديق بموت النبي (ص) هذه الأمور التي أسلفنا ، إلى أن حضر (أبو بكر) من السنح ـ عالية من عوالي المدينة تبعد عنها بأربعة أميال أو ثلاثة ـ ولم يكد يسمع بالدعوى حتى يدخل الى بيت النبي ويكشف عن وجهه النير ليتحقق موته ، ثم يخرج إلى الناس .

وبينا عمر مستمر في الحلف على أن رسول الله لم يمت ، طلب إليه أبو بكر أن يجلس ، فلم يجلس ، وكرر عليه ذلك ثلاث مرات ، فلم يستجب لأمره ، فقال :

ـ أيها الحالف على رسلك .

ولم تفد هذه المحاولات في ردّ عمر عما هو فيه ، فقام أبو بكر خطيباً في ناحية أخرى وقد اجتمع الناس حوله فقال :

ـ من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم » .

عندئذ اعتقد المسلمون بالحقيقة وجابهوا الواقع وجهاً لوجه . . وحتى عمر نفسه فقد صعق الى الأرض . وصدَّق بموت النبي بعد أن تحقق أن الآية من القرآن ـ كما يقول ـ .

* * *

ولا أتصور أن أبسط الأفراد إدراكاً يقنع بتفسير هذه الاحداث تفسيراً ساذجاً .

انه عمر ، يُرعد ويُزبد ، ويهدّد بالقتل كل من يقول بموت رسول الله ، وإذا هو في لحظة ، يصدّق بموت النبي (ص) فيصعق إلى الأرض .

كلّا !

ومن أين عرف أن النبي (ص) لا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله ؟

وهل أخبره رسول الله بأنّه سيخرج ويقطع أيدي وأرجل من قال بموته ؟!

وكيف استطاع الجزم بذلك كلّه ، والقرآن يقول : ﴿وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات﴾؟!

لا بدّ في الأمر من خطّة . . .

ووراء الأكمّة ما وراءها !

* * *

وما يدرينا ، لعل قيامه بتلك الدعوة الثائرة الصارمة، كان بدافع من غياب أبي بكر عن المدينة ، وأنه بعمله ذلك استطاع السيطرة على الموقف ساعات كي لا تنصرف الخلافة الى علي عليه السلام ـ ما دام رسول الله حياً !!! ـ وما أن حضر أبو بكر من السنح حتى صدق بموت محمد . . . وعند ذاك أخذا يخططان للخلافة وتصييرها إلى أبي بكر !!

وهل تأبى هذه الأحداث والمحاولات هذا التفسير ؟!

وليكن الأمر ما يكون ، فان النجاح في نزاع (السقيفة) ما كان حليفاً للمهاجرين (وقد مثّلهم عمر وأبو بكر وأبو عبيدة الجراح) إلّا بالتمهيد له بعدم موت النبي . . . ولتمتدّ الأيدي بعد ذلك تقلّب صفحات التاريخ لتطمئنّ القلوب إلى صحّة هذا القول .

بعد وفاة النبيّ

تتوالى الأحداث بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ويحدثك التاريخ بالعجب العجاب . . .

يروي لك قصة (الردّة) التي شملت الغالبية العظمى من المسلمين حين راحوا يصرفون الخلافة عن صاحبها الشرعي ، الذي أكّد الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله على خلافته وولايته شؤون المسلمين بعده . . . ذلك هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

ويروي لك منازعة فاطمة في حقها من (فدك) .

ويقص عليك قيادة علي عليه السلام بعمامته الى الجامع ليبايع أبا بكر .

ويتحدث لك عن اضرام النار على دار فاطمة . .

وينبئك بكل شيء من هذا القبيل ، وأنت واجم ذاهل اللب ، لا تدري أحلمٌ ما تسمعه أم حقيقة !

ألم يقل رسول الله (ص) في علي : هذا وصيي وخليفتي فيكم ، وإن علياً منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدي ؟!

ألم يرفعه على ذراعيه يوم الغدير ويقول : من كنت مولاه فهذا عليّ

مولاه ؟!

ألم يسمعوا قوله (ص) في فاطمة : فاطمة بضعة منّي ، من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله .

ألم يقل فيها : إن الله يرضى لرضى فاطمة ، ويغضب لغضبها ؟!

ألم تنزل فيها وولديها آيات وآيات . . . فمن آية التطهير ، إلى المباهلة ، الى آيات الأبرار ، إلى آية المودّة في القربى ؟!

أو يكون لهم حق الاجتهاد في مقابل هذه الكثرة الكاثرة من النصوص المتواترة . . .

* * *

تفيض روح محمد (ص) إلى بارئها ، فتشهد فاطمة عليها السلام السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ، والأناس غير الأناس . . .

ويحق لها بعد ذلك أن تعطف إلى قبر والدها العظيم وتقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم وقد نكبوا

وكل أهل لـه قربى ومنـزلة ... عند الإله على الأدنين مقترب

أبدت رجال لنا نجوى صدورهم ... لما قضيت وحالت دونك الترب

تجهمتنـا رجال واستخف بنـا ... لما فقدت، وكل الأرض مغتصب

وكنت نوراً، وبدراً يستضاء به ... عليك تنزل من ذي العزة الكتب

وكان جبريل بالآيات يؤنسنا ... فقد فقدت وكل الخير محتجب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما مضيت وحالت دونك الترب

لقد رزينا بما لم يرز ذو شجن ... من البرية لا عجم ولا عرب

* * *

ولعمري انها فترة جد قصيرة بين وفاة النبي وبضعته ، لا تتجاوز

على أكثر التقادير التسعين يوماً . ولكنها كانت فترة ثقيلة على الزهراء جداً .

رفعت لواء المعارضة بادىء ذي بدء ، ونجحت بعض الشيء في مهمتها . . . ولكنها ذوت تدريجياً ، لأن المرأة ريحانة وليست قهرمانة . . .

ولم تكن معارضتها ـ إذ عارضت ـ عبثاً أو اندفاعاً وراء عاطفة . . . وإنما شهدت الحق يسحق بالأقدام ، فراحت تبذل كل جهدها لمناصرته وإعلانه على الملأ .

في المعترك

١- وراء عليّ إلى الجامع
٢- إضرام النار
٣- فدك
٤- بيت الأحزان

وراء علي إلى الجامع

نصب أبو بكر للخلافة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان السند في هذا الأمر اجماع المسلمين على اختياره .

ومن يتأمل في هذا ، يجد ان الخلافة امتداد للرسالة ، وكما ان الثانية لا تكون الا بنص من الله تعالى ، كذلك الأولى . إذن لا مجال لاختيار الأمة في تعيين الخليفة ، إنما ذلك من حق الله وحده .

وعلى ان الإجماع المذكور غير تام . فقد خالف الأنصار ، وبنو هاشم ، وعمار ، وسلمان ، والمقداد ، وأبو ذر وكثيرون من الصحابة .

ومهما يكن من أمر ، فان الذي وقع هو تسنم أبي بكر منصب الخلافة وتنحية عليّ عليه السلام عنها ، بالرغم من ان عامة المهاجرين وجل الأنصار كانوا لا يشكون انه هو صاحب الأمر بعد رسول الله .

ولعل أهم الأسباب التي دفعت المسلمين إلى هذا الأمر ما يلي :

١ ـ كراهة اجتماع النبوة والإمامة في بني هاشم ، فيبجحون على قومهم بجحاً بجحاً . وهذا ما صرّح به عمر في محاورة طويلة بينه وبين ابن عباس .

٢ ـ صغر سنّ عليّ عليه السلام .

٣ ـ حسد العرب عامة وقريش خاصة إياه ، وتمالئهـا عليه .

٤ ـ ان علياً سيحملهم إذا ولي الأمر على الحق الأبلج والمحجة البيضاء وان كرهوا ـ والحق مر في الأذواق ـ وهذا ما صرح به عمر نفسه .

وإذ استقر الأمر لأبي بكر ، فلا بدّ من أخذ البيعة له ممن تخلف عن ذلك ، وهذا امر منطقي ومعقول في كل ثورة وانقلاب .

فماذا يصنعون بعلي عليه السلام ، وقد امتنع عن البيعة ؟!

أيهددونه ، وهو ذلك البطل الشجاع الذي وتر صناديد العرب ، وقتل شجعانهم ، وناوش ذؤبانهم ؟!

أم يراوغونه، وهو ذلك البصير بكل هذه الأمور .

ومع ذلك فلا بد من أخذ البيعة منه .

ولكن ماذا سيكون موقف الزهراء عليها السلام منهم إذا حاولوا حمله على البيعة قسراً ؟!

وبالأحرى ، ماذا سيكون موقفهم من الزهراء ان هي دافعت عن زوجها وابن عمّها ؟!

هل يتغافلون عن ذلك كله ، أم ماذا ؟!

* * *

استعصى هذا الأمر على الحل لقادة الثورة ، وراحوا يفكرون في ذلك زمناً طويلاً . .

أما عليّ عليه السلام فقد ركن إلى زاوية من البيت يجمع القرآن من الرقاع واللخاف والعسب ، ومما في صدره . . . وانقطع اتصاله بالعالم الخارجي تماماً . بعد أن عرف انصراف الناس عنه .

ولكن طال الزمن . . .

وفي تخلّف علي عليه السلام عن البيعة مجال للنقد، ومتسع للاعتراض .

* * *

وتستقر الآراء على اخراج علي الى الجامع ومطالبته بالبيعة مهما كلف الثمن ، خصوصاً بعد أن علموا ان علياً عليه السلام يحرص على مصلحة الإسلام والأمة أكثر من حرصه على مصلحته الشخصية .

أرسلت الهيئة المأمورة بتنفيذ هذا القرار إلى دار علي بقيادة قنفذ ـ مولى عمر ـ فأذن (القائد)! على عليّ عليه السلام فأبى أن يأذن له فرجع أصحابه الى أبي بكر وعمر وهما جالسَان في المسجد والناس حولهما فقالوا :

لم يؤذن لنا .

فقال عمر : إذهبوا فان أذن لكم ، والا فادخلوا بغير إذن .

فانطلقوا ، واستأذنوا . . . فقالت الزهراء عليها السلام :

احرّج عليكم أن تدخلوا على بيتي بغير إذن .

فرجعوا وثبت (قنفذ) . وقالوا ان فاطمة قالت كذا وكذا ، فتحرّجنا أن ندخل بيتها بغير إذن .

فغضب عمر وقال : ما لنا وللنساء .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد اخرج علي عليه السلام إلى الجامع ، مقَوداً بعمامته ، تحمله على الصبر والحلم وصية من رسول الله صلّى الله عليه وآله

وما ان رأت الزهراء ذلك حتى خرجت وراءه وهي تقول .

يا أبا بكر أتريد أن ترملّني من زوجي ؟ والله لئن لم تكف عنه لأنشرن شعري ، ولأشقنّ جيبي ، ولآتين قبر أبي ولأصيحن إلى ربّي . . .

عند ذاك اخذت بيد الحسن والحسين ، وخرجت تريد قبر النبي (ص) !

* * *

تدارك الإمام عليه السلام هذا الموقف وقال لسلمان :

أدرك إبنة محمد فاني أرى جنبتي المدينة تخسفان .

يقول سلمان : كنت قريباً منها ، فرأيت ـ والله ـ أساس حيطان المسجد تقلعت من أسفلها حتى لو أراد رجل أن ينفذ من تحتها نفذ ، فدنوت منها ، وقلت : يا سيدتي ان الله تعالى بعث أباك رحمة فلا تكوني نقمة .

وازاء هذه الأحداث خلوا عن سبيل الإمام عليه السلام ، ورجعت الزهراء إلى بيتها ، وقد ضربت أروع المثل في الوفاء لزوجها .

إضرام النار

صورتان ترتسمان على لوحة كئيبة حزينة لم تقدر الأيدي المتطاولة أن تشوشهما :

صورة : أضرم فيها النار على دار فاطمة حتى يخرج علي عليه السلام للبيعة ، فيقال لمن أمر بالإحراق : في الدار فاطمة .

فيقول : وإن !

* * *

وصورة أخرى : يرسمها النظام (أستاذ الجاحظ) وينقلها الشهرستاني في (الملل والنحل) والصفدي في (الوافي بالوفيات) والسيد حامد حسين في (عبقات الأنوار) ، فيقول :

« نصّ النبي (ص) على أن الإمام عليّ عليه السلام ، وعيّنه وعرفت الصحابة ذلك ، ولكن كتمه عمر لأجل أبي بكر ، وإن عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت المحسن من بطنها ».

صورتان . . .

أجل صورتان كئيبتان ، أثبتهما هنا دون تعليق !

فـدك

١ ـ موقعها :

يقول الحموي في موقعها : « قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل : ثلاثة »[1] .

والظاهر أنها كانت قرية يسكنها اليهود ، وقد أبوا الانضواء تحت راية الإسلام في بادىء الأمر ، ولكنهم عندما وجدوا المسلمين احتلوا (خيبر) بقيادة القائد المظفر الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، رضخوا لحكم النبي صلّى الله عليه وآله من دون قتال .

٢ ـ قيمتها المادية :

أ ـ مقتضى الرواية التي يذكرها الجوهري في (السقيفة وفدك) أنها كانت تقدر (١٠٠,٠٠٠درهم) ، لأن الرواية تذكر أن عمر لما أجلى أهالي فدك إلى الشام بعث إليهم من يقوّم الأموال فقوّموا أرض فدك ونخلها ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمة النصف الذي لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألف درهم أعطاهم إياها من مال أتاه من العراق .

ب ـ ويقول الحموي عنها : « وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة »[2] .

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤/٢٣٨.
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤/٢٣٨.

جـ ـ يعبّر عنها الحموي بقرية ، كما وجدنا في التعريف[١] .

د ـ يقدر ابن أبي الحديد المعتزلي بعض نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري[٢] .

هـ ـ تقسيم معاوية فدكاً أثلاثاً ، وإعطاؤه لكل من يزيد ، ومروان وعمرو بن عثمان ثلثاً ، يدل على أنها كانت ثروة ضخمة ، إذ كانت تصلح لأن توزّع على أمراء ثلاثة من أصحاب الثراء العريض[٣] .

و ـ إن عمر منع أبا بكر من ترك فدك للزهراء لضعف المالية العامة مع احتياجها للتقوية لما يتهدد الموقف من حروب الردة وثورات العصاة . ومن الجليّ أن أرضاً يُستعان بحاصلاتها على تعديل ميزانية الدولة وتقوية ماليّاتها في ظروف حرجة كظرف الثورات والحروب الداخلية لا بد أنها ذات نتاج عظيم[٤] .

يستخلص مما تقدم أن القيمة المادية لفدك لم تكن ضئيلة ، وإنما كانت تدر وارداً كبيراً على صاحبها .

٣ ـ كيف انتقلت إلى النبي (ص) :

لما كان الرعب الذي وقع في قلوب أهالي (فدك) من سقوط (خيبر) بيد المسلمين هو الذي أدى الى خضوعهم للحكم الإسلامي ، ولم يحصل ذلك بحرب أو غزوة ، فان الحكم في مثل ذلك أن تكون ملكاً صرفاً للنبي صلّى الله عليه وآله ، كما هو صريح قوله تعالى : **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾**[٥].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) و(٣) و(٤) محمد باقر الصدر: فدك في التاريخ ص٢٥ ـ ٢٦ المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف .

(٥) سورة الحشر:٦ .

وهذا ما لا مجال لنقاش فيه . . .

إنّما الإختلاف يظهر في أمر آخر هو مقدار ما تنازل به أهالي **(فدك)** للنبي .

أ - فمقتضى رواية محمد بن إسحاق عن الزهري أنهم صالحوا النبي على النصف من فدك[1] .

ب - ويذكر أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري أن النبي صالحهم عليها كلها[2] .

ويؤيّد محمد بن اسحاق في روايته ، مالك بن أنس محدثاً عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم . ولكن يظهر هنا اختلاف آخر ، فيروي مالك بن أنس أن عمر لما أجلاهم الى الشام عوضهم عن النصف الذي لهم بمقدار من إبل وغيرها بينما يروي غيره أنه عوضهم عن نصفهم بمبلغ (٥٠,٠٠٠ درهم).

ومهما يكن من أمر الاختلاف الذي غالباً ما يحصل في أمثال هذه المسائل ، فان الراجح أن النبي صلّى الله عليه وآله صالح أهالي فدك على النصف من نخيلها وأرضها واشترى عمر النصف الآخر من بيت المال عند تولّيه الخلافة .

لقد رأينا أن اختلاف الرواة ينصبّ على مقدار ما تنازل به أهالي (فدك) للنبي صلّى الله عليه وآله ، أما أن فدك كانت للنبي بمقتضى الآية الشريفة فذلك ما لم ينكره أحد .

وبهذا الصدد فان أشدّ ما يدعو إلى الاستغراب قول أبي بكر في الجواب عن احتجاج فاطمة عليها السلام : « ان هذا المال لم يكن

---

(١) أبو بكر الجوهري : السقيفة وفدك، نقلاً عن شرح نهج البلاغة ج١٦/٢١٠ .

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/٢١٠، دار احياء الكتب ١٩٦٢ م.

للنبي »[1] وفي كلامه هذا مخالفة صريحة لما ذكره أكثر الرواة والمؤرخين من أن (فدك كانت للنبي خاصة لأنها ما لم يوجف عليها بخيلٍ ولا ركاب)[2] .

٤ ـ انتقالها الى فاطمة :

وإذا انتهينا من كون فدك خالصة للنبي صلّى الله عليه وآله ، وعدم كونها للمسلمين حتى تخضع لاجتهاد أحد من الصحابة ـ كائناً من كان ـ ساغ لنا أن نسأل : وما فعل بها النبي ؟!

الصحيح أنه نحلها الى فاطمة عليها السلام قبل وفاته ، أي أنه وهبها لها فصارت ملكاً للزهراء بلا منازع .

وإذا كنّا نؤمن بأن النبي صلّى الله عليه وآله معصوم و﴿لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[3] . . .وإذا عرفنا أن الفقهاء يجمعون على أن (الناس مسلّطون على أموالهم) فلا مجال لأن يعترض أحد على سبب منح النبي فدكاً الى ابنته الصدّيقة الطاهرة .

أما كيف قلنا بأن فدكاً كانت نحلة من النبي إلى فاطمة فسندنا في ذلك أمور :

الأول : قول الزهراء عليها السلام للإمام أمير المؤمنين : « هذا ابن أبي قحافة يبتزّني نحلة أبي »[4] .

الثاني : قول الزهراء عليها السلام لأبي بكر : « إن فدك وهبها لي

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/٢١٤.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان.

الحموي: معجم البلدان ج٤/٢٣٨.

ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/ ٢١٠.

(٣) سورة النجم/٣.

(٤) أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج ج١/١٤٥. مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ـ ١٣٨٦هـ .

رسول الله صلّى الله عليه وآله »[1] وعصمتها تمنع من أن تكذب ، وأن تطلب ما ليس لها .

الثالث : لقد ثبت في محلّه أن علياً عليه السلام معصوم . وعصمته تمنع من أن يمكن زوجته من أن تطلب ما ليس لها .

الرابع : قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في رسالته إلى عثمان بن حنيف : « بلى ! كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء ، فشحّت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين »[2] ولو كانت داخلة في تركة النبي (ص) لم يصح له التعبير بأنها كانت في أيدي أهل البيت ، نظراً لتعلق حقوق زوجات النبي بذلك .

الخامس : شهادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأم أيمن بأن رسول الله (ص) وهبها لفاطمة عندما طلب أبو بكر من الزهراء أن تأتي بشاهد على ما تقول .

٥ ـ منع أبي بكر فاطمة فدكاً :

بعد أن فاضت روح النبي صلّى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى ، نشبت خلافات عظيمة بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة ، وبدأ الأنصار ذلك الخلاف بأن اجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) لترشيح سعد بن عبادة للخلافة ، وعلم المهاجرون بذلك . . . وهالهم الأمر . فتدخّل عمر بن الخطاب وأبو بكر ، وأبو عبيدة الجراح في النزاع كممثلين عن المهاجرين . . . وبعد مناوشات ومفاوضات وخطب وتهديدات من الطرفين ، تنازل الأنصار عما كانوا يهدفون إليه فوافقوا على أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، فأجابهم عمر بأنه لا يلتقي قرنان في رأس واحد ، وطلب أن يكونوا هم الأمراء ، والأنصار الوزراء . . . وأخيراً غلب هؤلاء أولئك على أمرهم ، وتمّت البيعة لأبي بكر .

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/٢١٦.

(٢) محمد عبده: شرح نهج البلاغة ج٣/٧٩، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

كل هذا والنبيّ صلّى الله عليه وآله مسجّىً في داره ، وعليّ عليه السلام مشغول بتجهيزه وتكفينه والصلاة عليه . . .

ويخرج الإمام أمير المؤمنين بعد ثلاثة أيام ، ليرى أن المؤامرة قد أحبكت خيوطها ، ودُبّرت على أتمّ ما يكون لنزع الخلافة عنه ، وإيكالها إلى غيره .

ويتسلّم أبو بكر زمام الأمر ، ويبدأ حركاته الإصلاحية ، وفي مقدمة قائمة المشاريع التي كان يجب عليه تنفيذها ، منازعة فاطمة عليها السلام في أمر فدك ، وإرجاعها إلى بيت مال المسلمين .

أما مبرراته في ذلك فهي :

١ ـ إن ذلك لم يكن للنبي صلّى الله عليه وآله ، بل كان للمسلمين .

٢ ـ وعلى فرض أن فدكاً كانت للنبي صلّى الله عيه وآله ، فانه سمع النبي يقول : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث » .

٣ ـ رواية أبي هريرة عن النبي : « لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عيالي فهو صدقة » .

هذه هي المبررات التي تذكر لقيام أبي بكر بانتزاع فدك من فاطمة عليها السلام . وإذا ما عرضناها على طاولة المناقشة ، بموضوعية وأمانة تامتين ، متخلّين عن الرواسب الموجودة في أفكارنا تجاه القضية ، ومحاولين التهرب من اضفاء هالة التقديس على المسلمين الأولين ـ الأمر الذي وقع فيه أكثر الباحثين فعشت عيونهم عن إبصار نور الحق ـ نجد ما يلي :

١ ـ إن أبا بكر يدعي أن فدكاً لم تكن للنبي صلّى الله عليه وآله بل كانت للمسلمين .

لقد وجدنا أن المؤرخين يجمعون على أن فدكاً كانت خالصة للنبي صلّى الله عليه وآله . هذا مضافاً إلى أن الآية الكريمة صريحة في ذلك .

ومعه يكون كلام أبي بكر اجتهاداً في مقابل النص ، وهو باطل بلا ريب .

٢ ـ أما أنه سمع النبي (ص) يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » فيمكن أن يناقش بوجوه :

أ ـ إنه خارج عن محل الكلام ، لأننا أثبتنا أن فدكاً كانت نحلة ، وهبها رسول الله (ص) لفاطمة (ع) وإذا كانت ملكاً لفاطمة فلا تكون إرثاً من النبي لها ليقال أن الأنبياء لا يورثون .

ب ـ إن الراوي لها منحصر بأبي بكر ، فلم يروها أحد غيره . وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد المعتزلي : « المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الارث إلا أبو بكر وحده »[1] وبما أن القرآن الكريم أثبت الإرث لعموم الناس ، وجاء التصريح به في خصوص بعض الأنبياء ، فان هذا الخبر ـ وهو خبر واحد ـ لا يصلح لتخصيص الكتاب العزيز .

جـ ـ على أن التدقيق في الدوافع الحقيقية لمنع فدك من فاطمة يكشف لنا عن أن المسألة لم تكن على هذا المستوى من البساطة ، وإنما كانت هناك عوامل سياسية تلعب دورها في هذا الصدد . وإلا فما الذي يمنع الخليفة أو المسلمين قاطبة من أن يتنازلوا عن حقهم في فدك إرضاء لبنت نبيهم ، وقد سمعوا أباها يقول : « فاطمة بضعة مني ، من أحبها فقد أحبّني ، ومن أغضبها فقد أغضبني » ؟!

٣ ـ وأما رواية أبي هريرة فيكفينا اشتهاره بالوضع في الأحاديث ، حتى أنه صرح نفسه بذلك. وقد أغنانا الاستاذ المحقق الشيخ محمود أبو رية في كتابه (شيخ المضيرة : أبو هريرة الدوسي) من تجشم عناء البرهنة على كذب أبي هريرة وتزويره .

هذا مضافاً إلى أن ابن أبي الحديد يستغرب من هذه الرواية قائلاً :

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٦/٢٢١.

« وهذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلا أبو بكر وحده »[1] .

٦ ـ دوافع منع فاطمة عن فدك :

الواقع أن التاريخ الإسلامي يحتاج إلى غربلة عنيفة ، فقد كتب طبقاً لأهواء الحكام ـ شأنه في ذلك شأن التاريخ عند بقية الأمم ـ وهذه غلطة فظيعة ارتكبها المؤرخون المسلمون حين راحوا يسجلون الأحداث من زاوية الحكام لا من زاوية المحكومين .

ان البحث التاريخي الحر يفرض على صاحبه كثيراً من التجرد والموضوعية . إن وظيفة المؤرخ لا تعدو وظيفة عدسة للتصوير يرسلها الجيل الحاضر إلى الأجيال السابقة لتعود عليه بصور ملتقطة من هنا وهناك محتفظة بألوانها الأصلية من دون أن تلعب فيها العدسة أو تغير شيئاً .

ولكن عكس ذلك هو الذي حدث . ولسنا الآن بصدد البرهنة على ذلك من نماذج تاريخية معينة ، وإنما نريد أن نخلص من هذه المقدمة إلى أن التجرد والموضوعية ضرورة حتمية في البحث التاريخي

نأتي إلى قضية معينة فنحاول أن نكتشف الأسباب الخفية التي أدّت إلى وقوعها ، والعوامل اللاشعورية التي دفعت بأشخاص الرواية للظهور على خشبة المسرح في الدور الذي ظهروا فيه . وإذا استطعنا ذلك كنا قد أدّينا مهمّتنا بنجاح .

أمّا الدوافع الحقيقية لمسألة انتزاع فدك من فاطمة الزهراء عليها السلام فتكمن خلف سلسلة من الحوادث التي وقعت طوال الفترة الأولى من صدر الإسلام . ومن أهم تلك الحوادث هي :

١ ـ أن أبا بكر تقدم لخطبة الزهراء ، وامتنع الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم من تزويجها إياه . لكنه عندما تقدم علي بن أبي طالب

---

(١) المصدر السابق .

عليه السلام لخطبتها وافق على ذلك دون توقف .

ان الكراهية والشعور بالحقد في الشاب الذي نازعه شاب آخر على خطيبة معينة ظاهرة ملموسة عند اكثر أبناء البشر ، ولم يكن أبو بكر ليشذ عن هذه الظاهرة العامة . فلا يستبعد أن يكون في نفسه شيء تجاه فاطمة وعليّ عليهما السلام من ذلك الحين .

٢ ـ وجه النبي صلّى الله عليه وآله أبا بكر إلى قوم من المشركين ليقرأ عليهم سورة التوبة ، وفي الطريق أوحى الله تعالى إليه بأن يبعث علياً عليه السلام لهذه المهمة ، فذهب علي ولاقى أبا بكر في مُنتصف الطريق واخبره بأمر النبي إياه لتولي هذه المهمة .

هذه المنافسة تولد بلا ريب شيئاً من الحزازات في نفوس الآدميين .

٣ ـ بعث النبي صلّى الله عليه وآله (أسامة بن زيد) على رأس جيش من المسلمين الى ناحية البلقاء من أرض الشام ، ولعن من يتخلف عنه ، وذلك في المرض الذي توفي فيه ، تمهيداً لانعقاد الخلافة لوصيه عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ولكن أبا بكر وعمراً قد تخلفا عن الجيش[1] . . . وعندما مرض النبي ولم يستطع الخروج إلى الصلاة يوم الاثنين خرج أبو بكر للصلاة برغبة من ابنته عائشة ، وما أن سمع النبي

---

(١) ربما يجادل بعض المؤلفين في كون أبي بكر داخلاً في البعث واللعن على التخلف عنه . لكننا إذا استعرضنا كلمات المؤرخين وجدناهم يتفقون على دخوله في حكم البعث وانه لم يكن خارجاً عن بقية المهاجرين والأنصار بدليل مخصص . وعلى سبيل الشاهد لا الحصر ـ راجع :ـ

ابن سعد في الطبقات ج٤/٤٦، ١٣٦.
- ابن عساكر في (التهذيب) ج٢/٣٩١. و٣/٢١٥.
- الملا علي في (كنز العمال) ج٥/٣١٢.
- اليعقوبي في (تاريخه) ج٢/٩٣.
- ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) ج٢/٢١.
- محمد حسين هيكل في (حياة محمد) ص٤٦٧.

بذلك حتى خرج مغضباً ، متكئاً على عليّ عليه السلام وعمّه العباس ، فوصل إلى المسجد ونحّى أبا بكر عن الصلاة وصلّى بنفسه ، هذا الأمر ربما حمل أبا بكر على التفكير بأن الزهراء هي التي اخرجت أباها للصلاة كما أن عائشة أخرجته :

٤ ـ وإذا تذكرنا أن فدكاً كانت تدر وارداً كبيراً ، وان من الممكن أن يستخدم علي عليه السلام أموال زوجته في الدعوة لنفسه والمطالبة بحقه كما فعلت خديجة من قبل . . . فان هذا الأمر كان يخيف الخليفة الأول .

٥ ـ على أن للتحدّي السياسي أثره الفعال في كل هذه القضايا . فقد أراد أبو بكر أن يفهم علياً والزهراء أن سيطرته على فدك وصرفها الى بيت مال المسلمين لا يحدث أي استياء لدى الرأي العام ، ولا يدعو لغضب الجماهير ، ما دام مسيطراً على زمام الحكم . هذا المغزى العميق له قيمته على الصعيد السياسي ، وعلى مستوى المعارضة . . . ذلك ما لم يغفل عنه الخليفة الأول .

وإذا أردت شاهداً على ما أقول ، فإليك الرواية التالية :

لما سمع أبو بكر خطبة فاطمة شق عليه مقالتها فصعد المنبر وقال : أيّها الناس ، ما هذه الرعة[١] الى كل قالة ! أين كانت هذه الأماني على عهد رسول الله (ص) ؟ ألا من سمع فليقل ، ومن شهد فليتكلم ، إنما هو ثُعالة[٢] شهيده ذنبه ، مُرِبٌّ[٣] لكل فتنة ، هو الذي يقول : كرّوها[٤] جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمّ طحال[٥] أحبّ أهلها إليها البغي . ألا اني لو أشاء أن أقول لقلتُ ، ولو

---

(١) الرِّعة : الاصغاء.
(٢) ثُعالة : علم للثعلب.
(٣) مُرِبٌّ لكل فتنة : مهيّج لها.
(٤) كرّوها : اعيدوها.
(٥) أم طحال : امرأة معروفة بالبغاء في الجاهلية.

قلت لَبُحتُ : اني ساكت ما تركت . ثم التفت إلى الأنصار فقال : قد بلغني يا معشر الأنصار مقالة سفهائكم ، واحق من لزم عهد رسول الله (ص) أنتم فقد جاءكم فآويتم ونصرتم ، ألا واني لستُ باسطاً يداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك منا . . . ثم نزل »[1] .

عند استعراض هذه الخطبة في قبال خطبة الزهراء عليها السلام حول مطالبتها بفدك ، نجد أن أبا بكر لا يجيبها بعدم استحقاقها لفدك ، وانما يأخذ في التهكم بعلي عليه السلام ، ناسباً إليه انه يستشهد على أحقيته بزوجته فيكون ـ والعياذ بالله ـ كالثعلب الذي يستشهد بذنبه ، ثم يذكر قصّة أم طحال الزانية المعروفة في الجاهلية ، ولو كان قد ملك لسانه قليلاً لتورّع عن التفوه بمثل هذه الكلمات .

ولكنها السياسة . . .
ولكنّه الملك . . .
والملك عقيم !!!

وبصورة موجزة ، فان نقاش أبي بكر وخصامه لم ينصب على فدك وإنما على الخلافة ، فيفهم من ذلك أنه كان يدرك جيداً ما يكمن خلف لمطالبة بفدك فسبق إلى التهريج ضده بالعبارات الآنفة الذكر .

يقول ابن أبي الحديد : « سألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة لغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟

قال : نعم .

قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك وهي عنده صادقة ؟

فتبسّم ، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلة عابته ، قال : لو اعطاها اليوم فدك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً ادعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار

---

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٦/٢١٥.

والموافقة بشيء ، لأنه يكون قد اسجل على نفسه انها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود »[1] .

فالمسألة ـ إذن ـ لم تكن مسألة فدك ، وإنما هي مسألة الخلافة . .

وإذا كان الأمر كذلك فلا مجال للاستغراب من عنفـ الزهراء في حديثها مع الخليفة الأول ، ولا من ثورتها الخالدة حين جمعت أبناءها وحفدتها وجاءت إلى المسجد لتلقي خطبتها العظيمة ، متخذة من النحلة أو الارث مبرراً لثورتها تلك .

٧ ـ إعلان المعارضة :

ومن صميم ما يتصل بحديثنا عن فدك أن نذكر خطبة الزهراء (ع) في ذلك . . .

فقد روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه عليهم السلام ، انه لما أجمع أبو بكر وعمر على منع فاطمة (ع) فدكاً وبلغها ذلك ، لاثت خمارها على رأسها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذيولها ، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت دونها ملاءة ، فجلست ثم أنّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء . . . فارتجّ المجلس ، ثم أمهلت هنيئة حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم في بكائهم ، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

الحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر على ما ألهم ، والثناء بما قدم ، من عموم نعمٍ ابتداها ، وسبوغ آلاءٍ أسداها ، وتمام منن أولاها ، جمّ عن الاحصاء عددها ، ونأى عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الإدراك

---

(١) ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ج١٦ ـ ٢٨٤ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٢ م .

أمدها ، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها ، واستحمد الى الخلائق باجزالها وثنى بالندب على أمثالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كلمة جعل الإخلاص تأويلها ، وضمن القلوب موصولها ، وأنار في التفكير معقولها ، الممتنع من الابصار رؤيته ، ومن الألسن صفته ، ومن الأوهام كيفيته . ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها . كونها بقدرته ، وذرأها بمشيته ، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها ، إلا تثبيتاً لحكمته ، وتنبيهاً على طاعته ، وإظهاراً لقدرته ، تعبداً لبريته ، واعزازاً لدعوته . ثم جعل الثواب على طاعته ، ووضع العقاب على معصيته ، زيادة لعبادته من نقمته وحياشة لهم إلى جنته .

وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله ، اختاره قبل أن أرسله ، وسمّاه قبل أن اجتباه ، واصطفاه قبل أن ابتعثه ، إذ الخلائق بالغيب مكنونة وبستر الأهاويل مصونة ، وبنهاية العدم مقرونة ، علماً من الله تعالى بما يلي الأمور ، وإحاطة بحوادث الدهور ، ومعرفة بمواقع الأمور .

ابتعثه الله إتماماً لأمره . وعزيمة على إمضاء حكمه ، وانفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فرقاً في أديانها ، عكفاً على نيرانها ، عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله بأبي محمد صلّى الله عليه وآله ظلمها ، وكشف عن القلوب بُهمها ، وجلّى عن الأبصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، فأنقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم الى الدين القويم ، ودعاهم الى الطريق المستقيم .

ثم قبضه الله اليه قبض رأفة واختيار ، ورغبة وإيثار فمحمد (ص) من تعب هذه الدار في راحة ، قد حفّ بالملائكة الأبرار ، ورضوان الرب الغفار ، ومجاورة الملك الجبّار صلّى الله على أبي ، نبيّه . وأمينه ، وخيرته من الخلق وصفيّه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

ثم إلتفتت إلى أهل المجلس ، وقالت :

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه ، وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله على أنفسكم ، وبلغائه الى الأمم ، زعيم حق له فيكم ، وعهد قدمه إليكم وبقية استخلفها عليكم : كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينة بصائره ، منكشفة سرائره ، منجلية ظواهره مغتبطة به أشياعه ، قائد إلى الرضوان أتباعه ، مؤد إلى النجاة استماعه . به تنال حجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة ، فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة : تنزيهاً لكم عن الكبر ، والزكاة : تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام : تثبيتاً للإخلاص . والحج : تشييداً للدين ، والعدل : تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا : نظاماً للملة ، وإمامتنا : أماناً للفرقة ، والجهاد : عزاً للإسلام ، والصبر : معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف : مصلحة للعامة ، وبر الوالدين : وقاية من السخط ، وصلة الأرحام : منساة في العمر ومنماة للعدد ، والقصاص : حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر : تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين : تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر : تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف : حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة : إيجاباً بالعفة ، وحرم الله الشرك اخلاصاً له بالربوبية ، فاتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فانه إنما يخشى الله من عباده العلماء .

ثم قالت :

أيّها الناس ، اعلموا اني فاطمة ، وأبي محمد (ص) أقول عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً ، ولا أفعل ما أفعل شططاً . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تعزوه وتعرفوه ، تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، ولنعم المعزى إليه صلّى الله عليه وآله وسلم .

فبلغ الرسالة ، صادعاً بالنذارة ، مائلاً عن مدرجة المشركين ،

ضارباً ثبجهم ، آخذاً بأكظامهم ، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يجف الأصنام ، وينكث الهام ، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر ، حتى تفرى الليل عن صبحه ، وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وطاح وشيظ النفاق ، وانحلت عقد الكفر والشقاق ، وفهتم بكلمة الاخلاص في نفر من البياض الخماص ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان وموطىء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القد ، أذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلّى الله عليه وآله ، بعد اللتيا والتي ، وبعد أن مني ببُهم الرجال وذؤ بان العرب ، ومردة أهل الكتاب ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، أو نجم قرن الشيطان ، أو فغرت فاغرة من المشركين ، قذف أخاه في لهواتها ، فلا ينكفىء حتى يطأ جناحها بأخمصه ، ويخمد لهبها بسيفه ، مكدوداً في ذات الله ، مجتهداً في أمر الله ، قريباً من رسول الله ، سيداً في أولياء الله ، مشمراً ناصحاً مجدّاً كادحاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأنتم على رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون ، تتربصون بنا الدوائر ، وتتوكفون الأخبار ، وتنكصون عند النزال ، وتفرّون من القتال .

فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه ، ومأوى أصفيائه ، ظهر فيكم حسكة النفاق ، وسمل جلباب الدين ، ونطق كاظم الغاوين ، ونبغ خامل الأقلين ، وهدر فنيق المبطلين ، فخطر في عرصاتكم ، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم ، فألفاكم لدعوته مستجيبين ، وللعزة فيه ملاحظين ، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً ، وأحشمكم فألفاكم غضاباً فوسمتم غير إبلكم ، ووردتم غير مشربكم . . . هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب ، والجرح لمّا يندمل ، والرسول لمّا يُقبر إبتداراً زعمتم خوف الفتنة ، ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين .

فهيهات فيكم ، وكيف بكم ؟ وأنى تؤفكون وكتاب الله بين

أظهركم ، أموره ظاهرة ، وأحكامه زاهرة ، وأعلامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، وقد خلفتموه وراء ظهوركم ، أرغبة عنه تريدون ؟ أم بغيره تحكمون ؟ بئس للظالمين بدلاً ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ، ويسلس قيادها ، ثم أخذتم تورون وقدتها ، وتهيجون جمرتها ، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي ، وإطفاء أنوار الدين الجلي ، وإهمال سنن النبي الصفي ، تشربون حسواً في ارتغاء ، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء ، ويصير منكم على حزّ المدى ، ووخز السنان في الحشا ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا ، أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟! أفلا تعلمون ؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته .

أيّها المسلمون !

أأغلب على إرثي ؟!

يابن أبي قحافة ، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فريّاً .

أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ؟ إذ يقول : ﴿وورث سليمان داود﴾ وقال فيما اقتضى من خبر يحيى بن زكريا إذ قال : ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب » وقال : ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾وقال : ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الانثيين﴾ وقال : ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ وزعمتم : أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ، ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها ؟ أم تقولون : إن أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي .

فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ،

والزعيم محمد ، والموعد القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولا ينفعكم إذ تندمون ، ولكل نبأ مستقر . . . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب عظيم .

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار ، فقالت

يا معشر النقيبة وأعضاد الملة ، وحضنة الإسلام ! ما هذه الغميزة في حقي ، والسِّنة عن ظلامتي ؟ أما كان رسول الله (ص) أبي يقول : « المرءُ يحفظ في ولده »؟!

سرعان ما أحدثتم ، وعجلان ذا إهالة ، ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول .

أتقولون : مات محمد (ص)؟ فخطبٌ جليلٌ استوسع وهنه ، واستنهر فتقه ،وانفتق رتقه ، واظلمت الأرض لغيبته ، وكسفت الشمس والقمر ، وانتثرت النجوم لمصيبته ، وأكدت الآمال ، وخشعت الجبال ، واضيع الحريم ، وأزيلت الحرمة عند مماته . فتلك والله النازلة الكبرى ، والمصيبة العظمى ، لا مثلها نازلة ، ولا بائقة عاجلة ، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه ، في أفنيتكم ، وفي مُمساكم ومصبحكم ، يهتف في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً ، ولقبله ما حلّ بأنبياء الله ورسله ، حكم فصل ، وقضاء حتم . . .

﴿وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

أيهاً بني قيلة !

أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ، ومنتدى ومجمع ؟! تلبسكم الدعوة ، وتشملكم الخبرة ، وأنتم ذوو العدد والعدّة ، والأداة والقوة ، وعندكم السلاح والجُنّة ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون ، وتأتيكم

الصرخة فلا تغيثون ، وأنتم موصوفون بالكفاح ، معروفون بالخير والصلاح ، والنخبة التي انتخبت،والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت ، قتلتم العرب ، وتحملتم الكدّ والتعب ، وناطحتم الأمم ، وكافحتم البهم ، لا نبرح أو تبرحون ، نأمركم فتأتمرون ، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام ، ودرّ حلب الأيام ، وخضعت ثغرة الشك ، وسكنت فورة الإفك ، وخمدت نيران الكفر ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوسق نظام الدين ، فأنى حزتم بعد البيان ؟ وأسررتم بعد الاعلان ؟ ونكصتم بعد الاقدام ؟ وأشركتم بعد الإيمان ؟ بؤساً لقوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وهمّوا باخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

ألا وقد أرى أن قد اخلدتم الى الخفض ، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض ، وخلوتم بالدعة ، ونجوتم بالضيق من السعة ، فمججتم ما دعيتم ووسعتم الذي تسوغتم ، فان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً ، فان الله لغنيّ حميد .

ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة منّي بالجذلة التي خامرتكم ، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم ، ولكنها فيضة النفس ، ونفثة الغيظ وخور القناة ، وثبة الصدر ، وتقدمة الحجة ، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر ، نقبة الخف ، باقية العار ، موسومة بغضب الجبار ، وشنار الأبد ، موصولة بنار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تفعلون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد فاعملوا انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون »[1] .

هذا هو إعلان المعارضة بتمامه ، نقلته هنا على طوله ، لأن كثيراً من الباحثين نقلوا نتفاً منه ، وأسقطوا مواضع جديرة بالاثبات .

---

(١)أحمد بن علي الطبرسي : الاحتجاج، ج١ ١٣٣ ـ ١٤١، مطبعة النعمان النجف الأشرف ـ ١٣٨٦هـ .

ومن خلاله يتبين أن المسألة ـ كما أسلفنا ـ لم تكن مسألة فدك، وإنما كانت ترمي إلى أوسع من ذلك المجال الضيق الذي شاء بعض الكتّاب أن يزجها فيه . . . إنها مسألة الخلافة التي تمس الدستور الاسلامي بالصميم وتشغل أبرز المواقع من المسألة الإسلامية المُعاشة آنذاك .

٨ ـ وبعد ذلك :

يظهر من بعض الروايات أن الصدّيقة الزهراء نجحت بعض الشيء في استنكارها وإعلانها المعارضة ، فألجأت الخليفة إلى أن يسلّمها فدكاً ، وكاد الأمر يتم لولا أن دخل عمر ، وقال له : ما هذا ؟

فقال : كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها .

فقال : مماذا تنفق على المسلمين وقد حاربتك العرب كما ترى ؟!

ثم أخذ الكتاب فشقّه[١] .

وهكذا نفهم أن (فدكاً) أصبحت من مصادر المالية العامة للمسلمين على عهد أبي بكر . أما بعد ذلك فيمكننا تتبع سلسلتها التاريخية بالصورة التالية :

في عهد عمر : دفع فدكاً الى ورثة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

في عهد عثمان : أقطعها مروان بن الحكم .

في عهد أمير المؤمنين عليّ : انتزعها من مروان تبعاً لسياسته التي تبنّاها في ردّ قطائع عثمان الى أصحابها . والرأي الراجح أنه كان ينفق غلاتها في مصالح المسلمين برضى منه ومن أولاده عليهم الصلاة والسلام[٢] .

---

(١) السيرة الحلبية ج٣/٣٩١.

(٢) محمد باقر الصدر: فدك في التاريخ ص٢١، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ـ ١٣٧٤ هـ .

في عهد معاوية : أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وعمر بن عثمان ثلثها ويزيد ـ ابنه ـ ثلثها الآخر .

في عهد مروان بن الحكم : خلصت كلها له ثم وهبها لابنه عبد العزيز .

في عهد عبد العزيز : كانت بيده .

في عهد عمر بن عبد العزيز : ورثها هو واخوته ، فاشترى حصصهم منها ، فلما خلصت له ردّها على وُلد فاطمة .

في عهد يزيد بن عبد الملك : انتزعها من أولاد فاطمة فصارت في أيدي بني مروان حتى انقرضت الخلافة الأموية .

في عهد أبي العباس السفاح : ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

في عهد المنصور : قبضها من بني الحسن .

في عهد المهدي : ردّها على الفاطميين .

في عهد موسى الهادي : قبضها من أيديهم ، وبقيت في أيدي العباسيين حتى خلافة المأمون .

في عهد المأمون : ردّها على الفاطميين سنة (٢١٠) . وبهذه المناسبة أنشأ دعبل الخزاعي قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أصبح وجه الزمانْ قد ضحكا   بـردّ مـأمـون هـاشم فـدكـا

في عهد المتوكل : انتزعها من الفاطميين وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار وكان من ضمنها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله (ص) بيده الكريمة فوجّه عبد الله بن عمر البازيار رجلاً يقال له : بشران بن أبي أمية الثقفي إلى المدينة فصرم تلك النخيل ، ثم عاد ففُلج .

وعند هذا الحدّ ينتهي تاريخ فدك . . .

٤ ـ بيت الأحزان

حين تخفق المعارضة السياسية تتحول الى مظاهرة صامتة ، وهذه الأخيرة قد تكون أبلغ تأثيراً من الأولى ، لأن فيها بالاضافة الى النكاية والاستنكار حفاظاً على الاستقرار والهدوء .

كذلك فعلت الزهراء عليها السلام حين رأت كل الذي رأت ، فلم يكن منها ـ وقد نحل جسمها ، وانهدَّ ركنها ، واظلمت الدنيا في عينيها ـ إلا أن تلجأ إلى بيت في البقيع عند قبور الشهدا تبكي أباها ، وتشكو له ما جرى عليها بعده .

كانت تذهب إلى قبر والدها العظيم أحياناً ، وتتناول قبضة من تربته وتشمها ثم تجهش بالبكاء وتقول :

ماذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صُبت علي مصائب لـو أنها صبّت على الأيام صرن لياليا

* * *

وخرجت مرة إلى قبر أبيها ، وهي تعثر في أذيالها ، ولا تبصر شيئاً من عبرتها ، حتى دنت من القبر الشريف ، فأغمي عليها . . . فتبادرت النساء إليها ونضحن الماء عليها حتى أفاقت فأخذت تقول : أبتاه ، رفعت

قوتي وخانني جلدي ، وشمت بي عدوي ، والكمد قاتلي .

أبتاه !

منبرك بعدك موحش ، ومحرابك خال من مناجاتك ، وقبرك فرح بمواراتك ، فوآأسفاه عليك إلى أن أقدم عليك .

يقول المحدث :

ثم زفرت ، وأنت أنّةً كادت روحها أن تخرج .

* * *

ثم رجعت إلى منزلها وأخذت بالبكاء والعويل ليلها ونهارها ، وهي لا ترقأ لها دمعة ، ولا تهدأ لها زفرة ، فاجتمع شيوخ أهل المدينة ، وأقبلوا الى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقالوا :

يا أبا الحسن ، إن فاطمة تبكي الليل والنهار ، فلا أحد منا يهنأ بالنوم في الليل ، وإنا نطلب منك أن تسألها إما أن تبكي ليلاً أو نهاراً .

فقال عليه السلام : حباً وكرامة .

أقبل الإمام الى الزهراء عليها السلام وهي مجهشة بالبكاء ، فلما رأته سكنت هنيئة ، فقال لها :

يا بنت رسول الله ، ان شيوخ المدينة يسألون أن أسألك إما أن تبكين أباك ليلاً وإما نهاراً .

فقالت : يا أبا الحسن ، ما أقل مكوثي بينهم ، وما أقرب مغيبي من بين أظهرهم ، فوالله لا أسكت ليلاً ولا نهاراً ، أو ألحق بأبي رسول الله .

وإذ رأى الإمام عليه السلام ذلك بنى لها بيتاً في البقيع ، سمي بـ(بيت الأحزان). فكانت إذا أصبحت قدمت الحسنين أمامها وخرجت إلى البقيع باكية ، فلا تزال بين القبور باكية حتى يقبل الليل فيذهب الإمام

عليه السلام خلفها ويأتي بها الى المنزل .

* * *

واشتاقت ذات مرة سماع صوت مؤذّن أبيها ـ بلال ـ فبلغ ذلك بلالاً وكان قد امتنع من الأذان بعد النبي (ص) فأخذ في الأذان . . .

وما أن جلجل الصوت الجهوري بكلمة : الله أكبر ، حتى ذكرت فاطمة نداء بلال على عهد أبيها العظيم فلم تتمالك من البكاء .

وما أن بلغ قوله : أشهد أن محمداً رسول الله (ص) ، حتى شهقت شهقة وسقطت لوجهها ، فأغمي عليها . . .

وقال الناس لبلال : أمسك يا بلال ، فقد فارقت ابنة رسول الله الدنيا .

فقطع بلال أذانه ولم يتمه .

ولما أفاقت فاطمة (ع) سألته أن يتم من حيث قطع . . . فأبى واعتذر فأعفته عن ذلك .

* * *

ولئن سكت فم المعارضة عن إعلان ما يجيش في ضمير فاطمة ، فقد نطق فيها لسان الدموع !

ولسان الدموع أقرح للقلب ، وأدمى للعين . . .

محاكمة مُرّة !!

ويا لوعة المحاكمة . . . حين تمسّ الوجدان النَعِس فتوقظه ولو للحظات !!

فقالت لأبي بكر وعمر : أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله (ص) تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم .

فقالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول: « رضا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحبَّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني » ؟

قالا : نعم سمعناها من رسول الله (ص) .

قالت : فإني أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني . ولئن لقيت النبيّ (ص) لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة

ثم انتحب أبو بكر يبكي حتى كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول

والله لأدعونّ الله عليك في كلّ صلاة أصلّيها[1] .

---

(١) عبد الله بن مسلم، المعروف بابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ص١٤، مطبعة الفتوح الأدبية - ١٣٣١ هـ.
وفي طبعة مؤسسة الحلبي بتحقيق الدكتور طه محمد الزيني (الاستاذ بالأزهر) - سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧م : ج١ص٢٠.



إغفاءة



١- الغُصْنُ الذَاوِي

إنّه عمر قصير، قصر عمر الزهور الفوّاحة . .

عمر قضته الزهراء وأوشكت على نهايته ، ولم يتفتح ـ بعدُ ـ إلا النزر اليسير من أكمامها !!

ان المآسي المتتالية والصدمات العنيفة التي واجهت الزهراء ، وهي لا تزال في مقتبل شبابها ، تركتها مهيضة الجناح ، طريحة الفراش ، تشكو ألماً من ضلعها المكسور ، وتتذكر ما جرى عليها وعلى زوجها الوفي الذي يمثل الركن الهادىء الذي تأوي إليه كلما عرض لها ما يقلقها .

تتذكر اغتصابهم حقها .

وتتذكر تنحية زوجها عن منصبه الذي هو به أحق .

وتتذكر قيادتهم إياه بعمامته إلى الجامع وهي تندب خلفه . . .

تتذكر كل ذلك فتنعكس أمام عينيها الغائرتين صورة مظلمة حالكة فتتحسر آهة من أعماق قلبها الذي صار يشتاق لقاء والدها العظيم ، وقد بشرها بأنها سريعة اللحاق به .

يا للجفاء . . .

إنّها بضعة النبي (ص) ، وبنته المفضلة ، التي أكد على رعاية حقها

مراراً .

والمرء يُحفظ في ولده !!

ولكن هذا كله لم يكن بالذي يمنع المتطاولين من أن يتطاولوا عليها ويردع الأيدي الآثمة من أن تمتد فتخنق هذه الزهرة الفواحة ولما يمض على تفتحها زمن طويل !!

وهكذا ذوى الغصن الذي خلفه النبي في أمته ، وتناثرت زهوره ، وذبلت أعواده ، وبدت شاحبة باهتة .

لكِ الله يا أم الحسن .

وسَتفِدين على ربّ كريم ، وأب عظيم ، وستشكين له ما جرى عليك بعده في مدة قصيرة جداً لا تتجاوز على أكثر التقادير التسعين يوماً !

ولتكن هذه نقطة سوداء فاحمة في سجل أمّة محمد ، تنبىء الأَجْيَالَ عما كان . . . كلما امتدت الأيدي تتصفح ما سطر في ذلك السجلّ .

عَلَى فِرَاشِ المَوْتِ

لساعة الفراق الدائم لوعة في نفوس الأحبة يعرفها كل من لامس هذه التجربة .

إنها آخر فرصة للقاء يتزود الحبيب بحبيبه ، ثم يكون القضاء المحتم .

وفي مثل هذه الساعة يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى الاستقرار والهدوء ، في حين أن الكثيرين يجزعون ويعتقلون . . .

* * *

أما الزهراء عليها السلام فانها وادعة مستقرة ، توصي الامام (ع) بوصاياها ، فتطلب منه أن يدفنها ليلاً ، ولا يعلم أحداً بذلك ، كما رجته أن لا يسمح لمن آذاها وأسخطها بالصلاة عليها !

ها هي بنت محمد (ص) تفد على ربّها راضية مطمئنة ، فتطلب من (أسماء بنت عميس) أن تأتيها ببقية حنوط والدها وتضعها عند رأسها وتغتسل هي أحسن ما يكون من الغسل ، ثم تتسجى بثوب لها . . . عند ذاك تطلب من (أسماء) أن تنتظرها هنيهة ثم تدعوها فان أجابت ، وإلا فلتعلم أنها قدمت على ربّها .

وتنتظرها (أسماء) هنيهة ثم تناديها فلم تجب ، فتنادي :

يا بنت محمد المصطفى !

يا بنت أكرم من حملته النساء !

يا بنت خير من وطأ الحصى !

يا بنت من كان من ربّه قاب قوسين أو أدنى !

. . . ويسود البيت سكون وهدوء ، فلا تسمع (أسماء) جواباً لندائها . . . فتكشف الثوب عن وجهها فاذا بها قد فارقت الدنيا .

* * *

دخل الحسنان البيت وقالا : أين أمّنا ؟

أمسكت (أسماء) عن الكلام .

فدخلا الغرفة فاذا هي هامدة لا حراك بها ، عند ذاك توجه الحسين عليه السلام إلى أخيه فقال : آجرك الله في الوالدة !

* * *

كان الإمام عليه السلام قد خرج وقتئذ الى الجامع لصلاة المغرب ، فخرجا وأخبراه بالكارثة . . .

وما أن سمع الإمام بذلك حتى غشي عليه ، ولما أفاق أخذ يقول : بمن العزاء يا بنت محمد ؟

كنت بك أتعزى ، ففيم العزاء من بعدك ؟!

ولقد سُمع يقول :

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وان افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

* * *

وتجتمع نساء بني هاشم لتتلقى نبأ المصيبة تتجدد ، والقرح يسيل . .

وتضج المدينة ضجّة واحدة للزهراء(ع).

ويقبل الجميع لتعزية علي والحسنين !!!

لكم الله يا أولاد الزهراء ، ولئن كان لكم بوفاة الأب العظيم مصاب فادح ، ورزءٌ جلل ، ففي مصابكم بأمكم الطاهرة ما لا يقل فداحة !

وصبراً على قضاء الرب الجليل ، ورضىً لرضاه .

تَشْييعٌ هادِئ

في ظلمة الليل البهيم ، حيث العيون نائمة والأصوات هادئة خرج موكب ملائكي من بيت عليّ عليه السلام ، يحمل وديعة رسول الله (ص) الى مثواها الأخير .

وكان ذلك ليلة الثالث من جمادى الثانية عام ١١ للهجرة . . .

* * *

خرج الموكب الحزين مؤلفاً من عدة أشخاص يُعدّون بالأصابع .

ها هو عليّ . .

والحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . . .

ومن خلفهم أبو ذر وعمار والمقداد وسلمان !![1]

أما أين كانت الألوف المؤلفة من المسلمين في المدينة . . . فذلك ما لم ترغب فيه الزهراء نفسها .

---

(١) وقد روى الشيخ الصدوق في (الخصال) بسنده عن علي عليه السلام: « خلقت الأرض لسبعة بهم يرزقون ، وبهم يمطرون ، وبهم يُنصرون : أبو ذر وسلمان والمقداد وعمّار ، وحذيفة ، وعبد الله بن مسعود . قال عليّ عليه السلام : وأنا إمامهم . وهم الذين شهدوا الصلاة على فاطمة » بحار الأنوار العلامة المجلسي ج٤٣/ ٢١٠

وينتهون بالنعش الى مكان بالبقيع أو في بيتها ، ويوارون الزهراء . . . ثم ينصرفون بسرعة كيلا يطلع على مكان القبر أحد !

وهكذا يأفل أول نجم من نجوم أهل البيت ، بعد أن أفل شمسهم قبل ثلاثة أشهر . . .

* * *

وهنا يتوقف محدثي عن القول ، ثم يسألني :

ألا تعجبك هذه النهاية ؟!!!

وبدلاً من أن أجيبه بشيء ، ألوذ بالصمت القاتل ، ثم ألوح له بيدي كأنّي أريد أن أقول له :

ـ وداعاً . . .

عليّ عليه السلام يؤبّن الزهراء

هذه لحظة الوداع ، وما أمرّها !!

وهي في نفس الوقت ثورة العاطفة ، وأنّة المفجوع ، وظُلامة من يرى تراثه نهباً . . . في حين ان محله من قيادة الأمة محل القطب من الرحى ، ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير .

أجل ، ما أن نفض الإمام عليه السلام يده من تراب القبر حتى هاج به الحزن ، وأرسل دموعه ثم انطلقت منه هذه الكلمات بلحن المناجي لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

« السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللّهِ ، عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النّازِلَةِ في جِوارِكَ ، والسَّريعةِ اللّحاقِ بِكَ .

قَلَّ يا رَسُولَ اللّهِ عَنْ صَفيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي . إلاّ أنَّ فِي التّأسّي بِعظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفادِحِ مُصِيبَتِكَ ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ فَلَقد وسدْتُك فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِك ، وفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُك ، إنّا لِلّـهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعُون .

فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ .

أمّا حُزْني فَسرمدٌ ، وأمّا لَيْلي فَمُسَهَّد ، إلى أنْ يَختَارَ اللّـهُ لي دارَكَ الّتي أَنْتَ بِها مُقِيم .

وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضافُرِ أُمَّتِكَ عَلىٰ هَضْمِها ، فَأحْفِها السُّؤالَ ، وَاسْتَخْبِرْها الحالَ . هٰذا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ .

وَالسَّلامُ عَلَيْكُما سَلامَ مُوَدِّعٍ ، لا قالٍ وَلا سَئِمٍ . فإنْ أنْصَرِفْ فَلا عَنْ مَلالَةٍ ، وإنْ أُقِمْ فَلا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِما وَعَدَ اللّـهُ الصّابِرِينَ »[١] .

* * *

هكذا أبّن عليّ عليه السلام زوجته الصدّيقة الطاهرة ، ولك أن تقرأ لوعته في قوله : « أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهّد » ، وأن تقرأ لغة الاحتجاج في قوله : « وستنبئك ابنتك بتضافر أمّتك على هضمها . . . فاحفها السؤال ، واستخبرها الحال » وقد روى بعض المؤرخين جملة أخرى للامام لم يذكرها الشريف الرضي في (نهج البلاغة) وهي قوله عليه السلام : « فكم من غليلٍ معتلجٍ بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلاً »[٢] .

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة رقم ٢٩٥ حسبما جاء في شرح ابن أبي الحديد ج١٠/٢٦٥ ، ورقم ٢٠١ حسبما جاء في (منهاج البراعة) ج١٣/٢ ، ورقم ١٩٣ حسبما جاء في شرح ابن ميثم البحراني ج٤/٢ .

(٢) السيد محسن الأمين : المجالس السنيّة ج٢/١٢٦ الطبعة الخامسة ـ ١٣٩٤ هجرية .

والعلاّمة المجلسي : بحار الأنوار ج٤٣/٣١١ . والكافي .

وفي الديوان المنسوب إلى الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام

أنه أنشد بعد وفاة فاطمة عليها السلام :

ألا هل إلى طول الحياة سبيل ... وأنّى وهذا الموت ليس يحول

وإنّي وإن أصبحت بالموت موقناً ... فلي أمل من دون ذاك طويل

وللدّهر ألوان تروح وتغتدي ... وإنّ نفوساً بينهنّ تسيل

ومنزل حقّ لا معرّج دونه ... لكلّ امرىء منها إليه سبيل

قطعت بأيّام التعزُّز ذكره ... وكلّ عزيز مّا هناك ذليل

أرى علل الدُّنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتّى الممات عليل

وإنّي لمشتاق إلى من أُحبّه ... فهل لي إلى من قد هويت سبيل

وإنّي وإن شطّت بي الدار نازحاً ... وقد مات قبلي بالفراق جميل

فقد قال في الأمثال في البين قائل ... أضرّ به يوم الفراق رحيل

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة ... وكلّ الّذي دون الفراق قليل

وإنّ افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على أن لا يدوم خليل

وكيف هناك العيش من بعد فقدهم ... لعمرك شيء ما إليه سبيل

سيعرض عن ذكري وتنسى مودّتي ... ويظهر بعدي للخليل عديل

وليس خليلي بالملول ولا الّذي ... إذا غبت يرضاه سواي بديل

ولكن خليلي من يدوم وصاله ... ويحفظ سرّي قلبه ودخيل

إذا انقطعت يوماً من العيش مدّتي ... فانّ بكاء الباكيات قليل

يريد الفتى أن لا يموت حبيبه ... وليس إلى ما يبتغيه سبيل

وليس جليلاً رزء مال وفقده ... ولكنّ رزء الأكرمين جليل

لذلك جنبي لا يؤاتيه مضجع ... وفي القلب من حرّ الفراق غليل

وداع . . .

سيّدتي : بضعة النبي ،

أيّتها الزهراء ،

يا أمّ الحسن ،

أنتهي عند هذا الحدّ من لقائي بك على هذه الصفحات ، ولم أتعدّ السفح ، وأنى لي ببلوغ حقيقة ما أنت عليه وقد أحلك الله القمة ؟!

وأعود فأرفع (بطاقة الولاء) عند الوداع ، وقد خنقتني العبرة ، واعتلجت في صدري أنة عميقة ، لا شكّ أن القارىء الكريم يعرف أسبابها ويمنحني في ذلك الكثير من الحق !

محتويات الكتاب

الموضوع ـــــ الصفحة

الموضوع ——————————— الصفحة



المصادر

١ ـ نهج البلاغة : جمع الشريف الرضي .

٢ ـ شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد

٣ ـ فدك في التاريخ : السيد محمد باقر الصدر .

٤ ـ الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء : السيد عبد الحسين شرف الدين .

٥ ـ بحار الأنوار : العلامة المجلسي .

٦ ـ بيت الأحزان : الشيخ عباس القمي .

٧ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون : عباس محمود العقّاد .

٨ ـ الزهراء في التاريخ والسنة والأدب : السيد كاظم الكفائي .

٩ ـ المعصومون الأربعة عشر : عبد المنعم الكاظمي .

١٠ ـ السقيفة : الشيخ محمد رضا المظفر .

١١ ـ المباهلة : الشيخ عبد الله السبيتي .

١٢ ـ ناسخ التواريخ : محمد تقي سبهر .

١٣ ـ الأمالي : الشيخ الصدوق .

١٤ ـ المراجعات : السيد عبد الحسين شرف الدين .

١٥ ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة : السيد مرتضى الفيروزآبادي .

١٦ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة : الاربلي .

١٧ ـ دلائل الإمامة : الطبري .
١٨ ـ ينابيع المودة : سليمان القندوزي .
١٩ ـ المجالس السنية : السيد محسن الأمين .
٢٠ ـ إحقاق الحق : القاضي نور الله التستري ، مع ملحقات السيد المرعشي .
٢١ ـ الفصول المختارة من العيون والمحاسن : الشيخ المفيد .
٢٢ ـ كتاب سُليم بن قيس الهلالي : سليم بن قيس .
٢٣ ـ الغدير : العلّامة الأميني .
٢٤ ـ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : ميرزا حبيب الله الخوئي .
٢٥ ـ الامامة والسياسة : ابن قتيبة الدينوري .
٢٦ ـ الصواعق المحرقة : ابن حجر .





